

مِنْ كُلِّ الْجَنَّاتِ

---

# سر تأثير العرب وال المسلمين

4



**العنوان:** سر تأخر العرب والمسلمين .  
**المؤلف:** الشيخ/ محمد الغزالى .  
**إشراف عام:** داليا محمد إبراهيم .  
**تاريخ النشر:** الطبعة السابعة - مارس 2005م .  
**رقم الإيداع:** 2002/15108  
**الترقيم الدولي:** ISBN 977-14-1945-5

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة  
ت: 3466434- (02) 3472864- (02) فاكس: 3462576- (02) ص.ب: 21 إمبابة  
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmistr.com

المطبع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر  
ت: 8330289- (02) - فاكس: 8330296- (02)  
البريد الإلكتروني للمطبع: press@nahdetmistr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقى - الفجالة -  
القاهرة - ص. ب : 96 الفجالة - القاهرة.  
ت : 5903395- (02) - فاكس: 5908895- (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222  
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales @nahdetmistr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)  
ت: 5230569- (03)  
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف  
ت: 2259675- (050)

موقع الشركة على الانترنت: www.nahdetmistr.com  
موقع البيع على الانترنت: www.enahda.com



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / C D )  
وتقنن بأفضل الخدمات عبر موقع البيع  
**www.enahda.com**

**جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع**

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية  
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

في فرص الفراغ بين الدروس والمحاضرات والإفتاء - وما أفلها - استطعت أن أكتب فصول هذا الكتاب الوجيز ! وقد كان لي سابق عهد بخوض موضوعه . والتعرض لقضاياها ، إلا أنني هنا كنت أكثر صراحة وأكثر تحديدا .

ولاتزيدني الأيام إلا ثقة في الخطة التي انتهجتها لخدمة الإسلام وتبلیغ رسالته ورد العدوان عن حقائقه النقية .

في أول عهدي بالعمل في الجزائر وافتتاح جامعتها الإسلامية أحسست أن متاعب الدعوة الإسلامية التي لفتها تتكرر في المغرب الإسلامي والشرق الإسلامي على سواء ! فأزمة الدعاة الوعيين شديدة ، وأهل الذكر الجامعون بين القراءة والفقه قلة نادرة ، والاستعمار الثقافي والاجتماعي السياسي يعمل حيثما على بلوغ أهدافه في أرض تكاد تكون خلاء من الحراس ! بل إن الحراس أحيانا يسيئون إلى أنفسهم وأهليهم وأرضهم لأنهم يدركون الأمور على غير وجهها ، أو تملکهم العاطفة التي جعلت الديبة تقتل صاحبها !

من أجل ذلك كتبت فصول هذا الكتاب على عجل ، ومع أنني نشرت طبعته الأولى في القاهرة إلا أنني رحبت بإعادة طبعه في الجزائر ، والحق أنها به أولى ، لأن المشاعر التي ملكتني وليدة معاناة لأحوال أمم أنهضها الإسلام من كبوتها ، ونصرها على أثبت استعمار في الأرض ، فلما هزمته في ميدان القتال استدار يحاول ختلها في ميدان البناء ، وصنع المستقبل !

وهيئات فالشعب المسلم كان بفطرته يتحسس طريقه إلى مستقبله . وكان بعقيدته يقصى سماسة الإلحاد والانحراف الذين يريدون غشه والعبث بمستقبله ..

ولكن حاجة الشعوب الإسلامية كلها - لا الشعب الجزائري وحده - هي إلى دعوة يعرفون الإسلام معرفة صالحة ، ويفرقون بين تعاليمه السماوية وما التبس بها من أهواء العامة وشهوات المسلمين على اختلاف القرون .

ولعل ما أجملته هنا أكون قد فصلته في مواطن أخرى ، والله من وراء القصد .

**محمد الغزالى**

قسنطينة - الجزائر

## مقدمة

يستطيع الأتقياء أن ينقذوا المدنية الحديثة ، وأن يكتشفوا المعايب التي تخدش قدرها . . . أو تسقط مكانتها ! فهل يجدون لهم هذا الموقف في جبر كسورهم وإزالة تخلّفهم ؟

إن الفقير يستطيع أن يهجو الغنىً وأن يفضح سورة الطغيان في مسلكه ! فهل ذلك نافعه ؟ وهل ذلك الهجاء يسد جوعته ويستر عورته ؟

من أمد بعيد أحسست أننا مصابون من داخلنا ، وأن موارينا الفكرية لا تنبع من ديننا ، بل من تعاليم دخيلة على هذا الدين . . .

ومن أمد بعيد أحسست أن هناك ازورارا عن توجيهات الإسلام الخامسة في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية تتشيا مع أهواء فرد من الأفراد ، أو طبيعة جنس من الأجناس ، وأن العبادات فقدت روحها ، وأصبحت رسوما ميتة ، وأن الأخلاق سقطت عن عرشهما ، وأمسى تعامل الناس وفق غرائزهم ، وأن الصراع العالمي ليس بين الإسلام وغيره من أهواء البشر ! هو صراع بين تطبيقات غبية للإسلام ومسالك بشرية يقطة جريئة . .

إن أهل الكتاب الأقدمين حرفوا الكلام عن موضعه على نحو ما ، ونحن - على امتداد عدة قرون - نغلف الوحي بأهوائنا حتى ضاع بريقه . وأكاد أقول لسكان القارات : إن ما ترون في شئوننا ليس ما أنزل الله من كتاب ولا ما قدم رسوله من أسوة ، إن ما ترون هو عوج أمة نسيت ما لديها ومضت مع هواها . .

وقد بلغ من ضراوة الحجب التي رانت على بصائرها أنها تقاوم من يريد العودة بها إلى طريق الله ، إنها تتccbض لمواريثها من تقاليد الانحراف والعجز ، وتتأبى على عناصر الحق والرشد ، التي عرفها سلفها فكانوا الأمة الأولى في العالم .

وأنا أعرف صدى هذه الصيحة في نفوس كثيرة !  
سيقول كثيرون : رجل متدين يريد العودة بنا إلى المسجد ! أو يحدثنا عن  
الروحانيات والدار الآخرة ..

وما أنكر صلتي بالمسجد ولا تعلق قلبي به ! وما أنكر شعوري بالدار الآخرة ،  
وضرورة الإعداد لها !

إن إنكار الحقائق ضرب من السفه ، والإيغال في الأوهام لا خير فيه ... جذور  
ضاربة في الماضي البعيد والقريب ..

وقد سبق لي الكلام في هذا الموضوع متنى وثلاث ، في تفصيل طويل . بيد أنني  
 هنا بحثت إلى نهج أكثر إفصاحاً ، وذلك لأن دعوة إلى الإسلام يحدون شعوبه المتخنة  
 إلى ذات الطريق الذي آذاهم وجّر عليهم هزائم هائلة .

وقد رأيت أصوات الجهل تعلو ، تساندها قوى شريرة ، وأصوات المصلحين تخفت  
 لأن أعداء الحق يخشون عواقب صحوة حقيقة للأمة الإسلامية ...

بل قد يكون من أعداء الإسلام أشخاص يلحون في الانتقام إليه ، والحديث عنه !  
أى حديث ؟ حديث يتناول مشكلات موهومة ، ويتجاهل مشكلات قائمة ، حديث  
يزيف الغبار عن الصورة الموجودة ، ولا يعيد تشكييل هذه الصورة وفق ما للإسلام من  
ثقافة ذاتية وسياسية قوية .

إنني أعلن أن ولائي الأول والأخير للإسلام ، كما بلغهنبيه ، ونفذه خلفاؤه ،  
لا كما فعله الحاكمون باسمه ، أو الجاهلون به ، مهما بلغت مزاعمهم .

محمد الغزالى

القاهرة - ١٩٨٥

## أين الخلل ...؟

فرزعت لما سمعت قائلاً يقول : إن ألف مليون صيني قدرت الشيوعية على توحيدهم في دولة كبرى على تناهى الديار واتساع الأقطار ، أما الألف مليون مسلم فيبدو أن الإسلام عاجز عن جمع كلمتهم وحشدهم تحت راية واحدة . !! قلت : ويحك ، أبصر ما تقول . ! قال : هل ذكرت إلا الواقع ؟ فأجوبته على عجل : لو كانت الشيوعية تجمع لسدّ الفجوة بين الصين وروسيا ، أو بين الروس وأوروبا الشرقية التي تعنو<sup>(١)</sup> لهم راغمة . ! قال : هناك أسباب عارضة لهذه الجفوة ! قلت : أولى بك أن تلتمس هذه الأعذار للأمة الإسلامية ، بدل أن تتهم الإسلام نفسه بالعجز عن لم الشمل وتكوين الوحدة الكبرى . . .

وعدت إلى نفسي أفكّر وأراجع وأندبر !

إن الأمة الإسلامية تعانى صدوعا هائلة ، وهي الآن موزعة على أكثر من سبعين قومية ، أو سبعين جنسية سياسية بلغة هيئة الأمم ولغة « جوازات السفر » على سواء !! والإسلام سواء كان عقيدة أو شريعة عملة ليس لها رصيد ، وأتباعه يُنال منهم ولا ينالون ، ويختار عليهم ولا يغيرون ! وذئاب الشرق والغرب تغير عليهم فتفترس ما شاءت من القطاعان السائبة دون أن يتمعر وجه !! .

إن إخراج يهودي واحد في روسيا يثير عاصفة من الكلام حول حقوق الإنسان ، وحول عداوة السامية ، أما مقتل المئات والألوف من المسلمين في إفريقيا وأسيا وأوروبا فالخطب يسير ! وقد يشار بعض اللعنة ثم تُنسى المأساة ، وأول من ينساها المسلمون أنفسهم . . . !! ما سرّ هذا الضياع والشتات ؟ ما وراء التفكك والتبلد ؟

الحق أن الأسباب كثيرة بين سياسية واجتماعية وثقافية ، وأنها بدأت من قديم ، ولكن الكيان الحى قد يغالب الجراثيم الوافدة ويهزمها ، وقد يصاب بها ويتماسك تحت وطأتها ، وربما استطاع العيش زمانا وهو يحس بها ويعالجها بمسكنات موقوتة . بيد أنه سيقع فريستها آخر الأمر ، ما دام لم يتناول لها دواء يجلب العافية ، ويحسّم البلاء . ! كان المسلمون من مئتي سنة فقط أشدّ هيبة وأعزّ نفرا - مع ما تلاحق عليهم من هزائم - كانت الأسطيل الأجنبية لا تمر بالبحر الوسيط إلا بعد أن تستأمن من دولة

(١) تعنوا لهم : أي تخضع وتندل .

الإسلامية إذ كان المسلمون يفرضون ضرائب على السفن المارة بشواطئهم! وسمعت في مجلس مؤرخين وسasse - وأنا بالجزائر - أن چورچ واشنطن لما انتصر في حرب الاستقلال واستقرت الأمور للولايات المتحدة ، كتب إلى حاكم الجزائر يومئذ ليطمئن على سلامة السفن الأمريكية ! مبدياً موته .. - وتوجد نسخة بالإنجليزية لهذه الرسائل - كما رفض الجزائريون مهادنة بعض الدول الأوروبية ، برغم توصية الخلافة العثمانية ، وأوقعوا بها - هزائم مذلة .. ! كان<sup>(١)</sup> ذلك من قرنين اثنين !!

أما اليوم ... فالحدث ذو شجون .. والخلافة الإسلامية لم تلق حتفها في حادثة تصادم ، ولم تفقد حياتها عقب اغتيال مفاجئ .. كلا كلا ، كان نظام الخلافة يتربع ترّفع السكران الفاقد الوعي ، وكانت الأدواء الفاتكة تسروح في جسد الأمة كلها وتهدّى قواها هدا . ومن ثم فإن السلطان عبد المجيد بعد ما وقع في قبضة الإنكليز لم يفعلوا به شيئا ، كان أتفه من أن يؤخذ ! لقد تركوه لقومه أو لعملائهم الذين زهدوا في الخلافة وأثروا الارتداد .. !! وهكذا تلاشت الدولة الإسلامية الكبرى ، لقد غرفت في دوامة من أخطائها قبل أن تنالها سيف الأعداء .. !

والبحث عن أسباب الوفاة مطلوب . إن الإسلام خاتم الرسالات السماوية ، وتاريخ الأولين في كتابه يحتل أكبر جزء منه ، وذلك لتعرف الأمة الأخيرة لماذا هلكت أم ونجت أخرى؟ ويبدو أن المسلمين يقرأون قصص القرآن للتسلية ويسمعون أنباء الحضارات المدبّرة والأم الهاكلة وكأن الكلام لغيرهم !!

والغريب أنهم سكنوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهم يؤمّلون الخير ! ووقع منهم ولا يزال يقع اعوجاج خلقى وسياسي يترفع الآخرون عنه ، ومع ذلك يحسبون أنفسهم عباد الله الخلصين .. !!

(١) لعل تفصيل الواقع يكون مفيدا . ففي يوم السبت ٢١/٥/١٧٩٥ هـ الموافق ١٢١٠/٢/٢١ م عقدت معاهدة بين «الدai حسن» حاكم الجزائر وبين چورچ واشنطن رئيس الولايات المتحدة كى يؤمن الجزائريون الطرق البحرية للسفن الأمريكية ، وكان الأسطول الجزائري سيد هذه المناطق يومئذ .. ! والدai حسن هو بانى مسجد «كينشاوه» شكر الله الذى نصره على الأسبان فى معركة كبيرة ، وقد فرض عليهم أن يذهب وفد منهم إلى الأستانة كى يلقى الخليفة حاملا معه جرتين من الماء (!) وذلك لأن القائد الإسباني كان قد هزم المسلمين قبل ذلك ، وحمل معه جرتين من ماء مدينة وهران إلى ملك إسبانيا علامه على أن الصليبيين سوف يرثون القطر كله ، فلما انهزوا ، ألمتهم الدai حسن بحمل جرتين آخريين ، وتقديهما إلى الخليفة المسلمين رمزا لانهزامهم أمام المسلمين ! إنها تراث قديمة جديدة ! ولستنا المسؤولين عنها ، فمن الوضاعة أن يقدم الرومان من أوربا فيقاتلوا نبينا في مؤنة وتبوك . وفي سوريا ومصر وفي الأنضوص والمغرب ، ثم يجيء بعدهم أحفادهم المستعمرون الجدد ليكرروا العداون نفسه ثم يقولون في صفاقة : إن الإسلام دين عداون !! ما أخرجكم أنت من بلادكم . ??

## بعض سنن الله الكونية من القرآن

وأريد قبل شرح العلل التي أومأت إليها أن أذكر طائفة من سنن الله الكونية في بقاء الأمم وهلاكها ، فإن القوانين القرآنية في هذا المجال لها دقة القوانين العلمية ، التي تسمح بجري السفن في البحار ، ودوران الآلات في المصانع ... :

(١) في سورة القصص : شرح مستفيض لعواقب الحكم الفردي والاستبداد السياسي ، وشرح آخر لعواقب الطغيان الاقتصادي ، والاغترار بالمال العريض ، أو جزء المولى تبارك اسمه في هذه الخلاصة : ﴿تُلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(١)</sup> فهل أجدت هذه الخلاصة في محاربة الفرعونية الحاكمة والقارونية الكاذبة ؟ أم شاعت هذه وتلك في تاريخنا القريب والبعيد .

(٢) في سورة يوسف : وفي أطواء فصول مثيرة من الغربة والسجن والإغرار والظلم ، يبرز قانونان جليلان - ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَقَرَّبْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup> والآخر ﴿وَلَا تَيَأسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَأسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

الأول نهج خلقى صارم في جدو الاستقامة ، والثانى الاستناد إلى الله في ارتقاء مستقبل أفضل مما أظلمت الآفاق في مرأى العين ، فهل تتم تنشئة الشباب على هذه القواعد ؟ أم التعلق بالقشور هو ديدننا ؟

(٣) بدأت سورة محمد أو سورة القتال بهذه الآية : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَالَهُمْ﴾<sup>(٤)</sup>

ألا تلمح في هذا المطلع الحاسم أن الإلحاد مهما صحبه من علم مشئوم النهاية ، وأن الكفار والفتانين مهما بلغ ذكاوهم لابد أن يحرموا بركات الله ويواجهوا الفشل والدمار ، وأن التعويل إنما يكون على الإيمان والإصلاح ؟

(١) سورة القصص ٨٣ . (٢) سورة يوسف ٩٠ . (٣) سورة يوسف ٨٧ . (٤) سورة محمد ١ .

(٤) الرغبة والرهبة أحاسيس مجنونة تلمسها وراء الطمع الجامح والخوف المذل ، فهل يعاني من ذلك إنسان أو شعب يفهم قوله تعالى :

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكٌ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلٌ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾<sup>(١)</sup>  
إن اضطراب الأعصاب ، ومستشفيات الأمراض النفسية ، وحوادث الانتحار عملاً أقطار الغرب لنضوب هذه الروحانية وانطلاق الجماهير وراء الماديات لا تدرى سواها ، فكيف حصلنا أنفسنا من هذه الأوبئة .. ؟

تدبر هذه الخلاصات المعتصرة من تجارب التاريخ ، ومن حصاد الأمم القائمة والذاهبة وسل نفسك : كم أفدنا نحن المسلمين من تقرير القرآن لها ؟ تدبر هذه الحكم القرآنية التي تمثل قوانين كونية صارمة ...

يقول تعالى في تعقيد واحد من هذه القوانين :

(٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ  
المُجْرُمُونَ<sup>(٣)</sup>

(٦) وتأمل القانون الآخر في قوله تعالى :

﴿فَإِنَّ الزَّرْدَ فِي ذَهَبٍ جُفَاءٌ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيُمْكِنُ فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(٤)</sup>

(٧) وتأمل هذا القانون أيضا :

﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالْطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾<sup>(٥)</sup>

(٨) وهذا قانون آخر :

﴿إِنْ يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبٌ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلُكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾<sup>(٦)</sup>

(٩) وقانون آخر يقول :

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدِونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾<sup>(٧)</sup>

(٣) سورة الرعد ١٧ .

(٢) سورة يونس ٨٢-٨١ .

(١) سورة فاطر ٢ .

(٦) سور السجدة ٥٣ .

(٥) سورة آل عمران ١٦٠ .

(٤) سورة المائدة ١٠٠ .

(١٠) وفي قانون آخر يقول القرآن :

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا نَعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾<sup>(١)</sup>

إن القوانين العشرة السابقة تمحظ لما يكفل الحضارات ، ويحصن الأمم ، ودراستها حياة وغاء للعوائد والأخلاق ، ومهما كان الوزن لفرع الفقه بهذه الأصول أسبق ، والعكوف عليها أجدى ، ذلك أنها حقائق ، والمقابل لها أباطيل ، أو أنها معروفة ، والم مقابل لها منكر .

أما الاختلاف في كثير من الأحكام الفقهية فلا يعدو أن يكون وجهات نظر قد تكون متساوية الأجر عند من يصوبون كل اجتهاد ، أو متفاوتة الأجر عند من يرون المحتجدين عرضة للخطأ والصواب ... !!

يقول فقهاء «مثلا» : لا بد من قراءة فاتحة الكتاب وراء الإمام ، ويقول فقهاء آخرون لا تجوز قراءتها !! ليكن هذا أو ذاك ، وليختر من يشاء ما شاء ، فما يقوم الدين أو ينهدم بأحد المذهبين ، إنما يضيع الدين والدنيا معاً بذهاب الخشوع واستحکام الأثرة ، وإطاعة الهوى ، والذهول عن سنن الله الثابتة في استخلاف الصالحين ، وتأديب الجهلة ، وإهالة التراب على ما يفعلون .

ويسرني أن أنقل هنا كلاماً للشيخ العلامة «محمد رشيد رضا» يؤكّد هذه الأقوال :

«لم يقصّر المصنفومن المتقدمين والمؤخرين في شيء من علم الكتاب والسنة ، كما قصرّوا في بيان ما هدّى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم ! والجمع بين النصوص التي وردت في ذلك ، والبحث على الاعتبار بها ! ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفرع الأحكام ، وقواعد الكلام ، لأفادوا الأمة بما يحفظ دينها ودنياها . وهو ما لا يغنى فيه التوسيع في دقائق مسائل النجاسة ، والطهارة ، والسلام ، والإجارة ، فإن العلم بسنن الله تعالى في عباده لا يعلوه إلا العلم بالله تعالى ، وصفاته ، وأفعاله ، بل هو منه .. أو من طرقه ووسائله» .

(١) سورة الأنفال ٥٣

وقد فطن لهذا الحكماء من العلماء فقال «أبو حامد الغزالى» فى بيان القدر المحمود من العلوم المطلوبة - من كتاب العلم فى الإحياء - :

«أما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء ، فهو العلم بالله تعالى وبصفاته . وأفعاله وسننه في خلقه ، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا! إن هذا العلم مطلوب لذاته» !! ثم فضل «أبو حامد الغزالى» أهل هذا العلم على جميع العلماء من متكلمين وفقهاء ! وأيده في ذلك «العز بن عبد السلام» ، إذ استفتى فيه ، فأفتي بصححته! وبين «الغزالى» أن هذا العلم هو الذى امتاز به عظماء الصحابة - رضى الله عنهم - وأنه الذى عنده «عبد الله بن مسعود» لما قال فى موت عمر بن الخطاب : «مات تسعة أعشار العلم ...» .

ورواية أبي خيثمة : «إنى لأحسب عمر قد ذهب بتسعة أعشار العلم !!!» أقول : كان عمر عَزِيزًا شَجَرًا أبصار الناس بطائع الشعوب ، وأسباب ازدهارها ، واندثارها ، وكيف تبني الدول ، وتصان ، وتنصر ، وتدوى رسالتها ... وسياسته فى المال والحكم أمارة وعى عميق بالإسلام وغاياته ...

لقد بدأ المسلمون رسالتهم العالمية بداية حسنة ، فكانوا - أمة ودولة - نموذجاً حسناً لتعاليم الإسلام ، واستفادوا استفادة صادقة من تاريخ الأم الأولى .

جاء الخليفة الأول <sup>(١)</sup> وليد شوري حرّة ، وبيعة نزية ، وبasher منصبه ، فقلتْ نفقته ، وهو حاكم يكدر للمسلمين ، عن نفقته وهو تاجر يكدر لنفسه! ثم شاء ألا يموت حتى يرد إلى بيت المال كل درهم أخذه منه أجرًا على عمل ، لتكون ولايته كصلاته ، وصيامه ، وحجه ابتغاء وجه الله ، وترفعاً عن ذرة من الدنيا ... !!

وجاء الخليفة الثاني <sup>(٢)</sup> بعد استطلاع للرأى العام لم يكن منه بد ، لم يكن عنه عوض ، فإن جيوش المسلمين مشتبكة مع الفرس والروم شرقاً وغرباً ، فيستحيل أن يتم انتخاب ...

وسار عمر سيرة سابقه عدالة وعفة . وإذا كان المهازيل <sup>(٣)</sup> في عصور كثيرة يسمون بعد تولى المناصب ، فإن عمر خرج من منصبه عارياً من أعراض الدنيا كلها ، وقتله علّج حاقد في بيت الله ، وهو يوم الركع السجود ..

(١) أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

(٢) عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٣) المهازيل : جمع هزيل وهو الشخص الضعيف والهزال ضد السمن .

وإذا كانت الأقطار المفتوحة تشكو صلف الغزاة ، فإن عمر أبي إلأ أن تعرف الشعوب معنى الحكم الجديد ، فما كاد يسمع أن ابن عمرو بن العاص والى مصر أهان أحد الأقباط ، حتى استدعي القبطي المظلوم ، وأعطيه السوط ليجلد ابن الوالي القرشى المعتدى . . . ! هل يعى تاريخ الفرس والروم ، أو تاريخ الإنجليز والفرنسيين مثل هذا الدرس ؟

وجاء الخليفة الثالث<sup>(١)</sup> وليد شورى من كبار الصحابة ، وكان رجلاً ذا مال في الجاهلية والإسلام ، عرك أذن خادم له من العبيد . فرأى أنه أوجعه ، فأعطى أذنه هو للعبد قاتلاً : اقتض لنفسك ، وتحجّل الخادم ! وألح عثمان لأنه يخشى يوم الحساب ! إن فتنا عمياً أحاطت بهذا الخليفة - وهو من أبل خلق الله - فطاحت به ، وكان من ورائها ائتمار اليهود والمجوس وسذاجة العرب الذين يعرفون معارك النهار ولا يعرفون مؤامرات الظلام ، ودسائس المهزومين من وثنين وكتابين ..

وجاء الخليفة الرابع على بن أبي طالب ، وهو رجل أوتي الحكمة والفروسيّة ، وطلب الآخرة ، وازدراء الدنيا ، بل إن فضائل الإسلام التقت في إهابه وتقلّت في جهاده ، وقد انتهت دولة الخلافة به ، لأن مصابه فيمن حوله كان أشد من مصابه فيمن قاتله . . . !

وتلاحظ على دولة الخلافة هذه الخصائص : أن الخليفة من أكفاء رجال الأمة وأقدرهم على قيادتها . وأن الشورى كانت مرعية ، فلا افتياً ، ولا استبداد . ولا استعلاء . وأن يد الخليفة في المال العام كانت مغلولة ، فلا يستطيع توسيعاً ، ولا استغلالاً أبداً . وأن العمل بالإسلام وله في الداخل والخارج كان شغله الشاغل ، ويمكن القول : إن الدولة في صدر الإسلام كانت الوجه الجميل للرسالة الإسلامية ، وكانت صورة حسنة للأمة الإسلامية . . . ثم بدأ تحول يجب عرضه بدقة ، نشأ عن طبيعة العرب أنفسهم !

فالعرب تشيع فيهم العصبية القبلية ، ولهم اعتداد منكر بالأنساب والأحساب ، وزعزعتهم الفردية طاغية . وقد قمع الإسلام هذه الجاهليات في سيرتهم ، بيد أن غرائز هذا الجنس القوى لم تلبث أن اقتحمت سياج الكبت ، وفرضت نفسها على شعبه

---

(١) عثمان بن عفان رضي الله عنه .

الحكم في الإسلام ! ثم فرضت نفسها على شعب أخرى اجتماعية ، واقتصادية ،  
وخلقية ...

وهذا التسلل العربي المنحرف المغالب لتعاليم الدين بدأ - لا أقول - على استحياء  
بل على استخفاء وخبث ، فإن الجماهير من العرب وغير العرب كانت أمينة على  
دينها ، حريرة على العيش في ظلاله ، فكيف تستطيع العصبيات الشريرة التنفيذ  
عن ذاتها في هذا الجو ؟

على كل حال لقد بدأت التحرك رافعة علم الدين !!

وإنى لأعجب : لماذا يرى عربي ولد في بطحاء مكة أن لسلطته الحق في حكم  
شواطئ الهدى والهندى والأطلسى ؟ لأن أباه عمدة في الجزيرة العربية والشام  
والعراق ؟ ولماذا يحمل نظام الخلافة على عاتقه هذا العبء الثقيل ؟ وماذا كسب الدين  
نفسه من هذه الذريعة من الضعفاء أو الأقوياء (١) ؟

لكن بني أمية ، ثم بني العباس فعلوها ، فاستصحبوا نسبهم «العرق» وهم يفرضون  
أنفسهم حكاما على الأمة ، يسوغون وجودهم وحدتهم في مناصب القيادة ، بأنهم أقدر  
من غيرهم على خدمة الإسلام ونشر دعوته !!

قد تقول : ما لنا ولهذا التاريخ القديم ؟ ولماذا تنبش القبور ؟

والجواب أن الأمر ليس أمر فرد مّا ، أو جنس مّا ، إنه أمر دين يجب إنصافه .. فإن  
«الحكم» هو أول ما انحل من عرى الإسلام ، وأمست «الدولة ورجالها» في أغلب  
الأعصار والأمسكار الوجه الدميم للإسلام ، لأسباب ينكرها الدين نفسه .

ذلك أن الخليفة لم يكن أقدر الناس على القيادة ، ولا من أقدرهم ، أى أن الكفاءة  
استبعدت في الترشيح للمنصب ! ثم وهنت أو ماتت أجهزة الشورى ، وانفرد بالتصريف  
عقل واحد يزعم لنفسه الكثير ! وانطلقت الأيدي في المال العام تعرف منه دون  
حسيب ولا رقيب ، وذهبت قناطير منه للخدمات والمداحين ، واضطرب العمل  
بالإسلام في الداخل والخارج على سواء ، بل لم توجد أجهزة رسمية متخصصة للدعوة

---

(١) عندما يكون الخليفة أهلا للخلافة مستوفيا لشروطها مؤديا لحقها .. لا يهمنا أن يكون من أى بلد أو قبيلة لكن  
عندما يكون غير مؤهل .. ثم يفرض مجرد أنه من بلد معين أو قبيلة معينة .. هنا يكون اعتراض الإسلام .

في أنحاء العالم ، فَفَحَشَ الجَهْلُ بِالإِسْلَامِ ، وَحَسْبُ الْأَجَانِبُ أَنَّ الإِسْلَامَ دِينُ قَتَالٍ  
وَحَسْبٌ ! رِبَّا وَهُمْ بَعْضُهُمْ فَظُنْ أَنَّ هَذِهِ الْعُلَةَ الْعَارِضَةَ أَصَابَتِ الإِسْلَامَ بِشَلْلٍ مُبَكِّرٍ !

وَهَذَا جَهْلٌ غَلِيظٌ ، فَإِنَّ الإِسْلَامَ لَيْسَ حِزْبًا سِيَاسِيًّا قُصَارَاهُ طَلْبُ السُّلْطَةِ ! إِنَّهُ دِينٌ  
يَهِيمُ عَلَى النُّفُوسِ وَالْأَفْكَارِ ، وَيُسُوسُ النَّاسَ أُولَاءِ بِالْعَقَائِدِ وَالْعَبَادَاتِ وَالْتَّقَالِيدِ التِّي  
يَضُعُهَا ، وَالْأَخْلَاقِ التِّي يَرْبِّي عَلَيْهَا ، وَالْتَّعَالِيمِ التِّي يَنْشُرُهَا ، وَالشِّعَارِيَّاتِ التِّي يَرْفَعُهَا .

وَالسُّلْطَةُ التَّنْفِيذِيَّةُ جَزْءٌ مِنْ مَنْهاجِهِ ، وَهُوَ لَمْ يَفْقَدْهَا مِنْذَ بَدَأَ مَسِيرَتَهُ ، وَإِنَّمَا اسْتَوْلَى  
عَلَيْهَا مَنْ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ ! وَبَقَى عَدْدُ هَائِلٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُرِيبِينَ وَالدُّعَاءِ وَالْمُوجَهِينَ  
وَالْعَمَالِ الْأَتْقِيَاءِ ، وَالْوَلَاةُ الْمُخْتَسِبِينَ يَعْمَلُونَ لِلإِسْلَامِ بِصَدْقٍ وَحَمَاسٍ ، وَيُوَسِّعُونَ دَائِرَتَهُ  
لِتَنْدَاهُ شَرْقًا وَغَربًا ، فَكَانَ انْحِلَالُ عَرَوَةِ الْحُكْمِ أَفَةً تَحْمِلُهَا الْكِيَانُ الْقَوِيُّ كَمَا يَتَحَمَّلُ  
الْإِنْسَانُ السَّوَىَ صِدَاعًا اعْتِرَاهُ ، أَوْ كَمَا يَتَحَمَّلُ الشَّابُ الْجَلدُ دَوَارًا يَنْتَقُصُ قَوَاهُ . . .

وَإِنَّمَا ظَهَرَتِ الْمُأْسَاةُ مَعَ مَرَّ الزَّمَانِ وَتَرَادُفِ الْبَلَاءِ وَشِيكُوخَةِ الدُّولَةِ ، وَضَعْفِ أَجْهِزَةِ  
الْمَنَاعَةِ ، وَقُدْرَةِ الْجَرَاثِيمِ الْكَامِنَةِ عَلَىِ الْفَتْكِ دُونَ وَجْلٍ . . .

إِنَّ الْمَرَضَ الْعَابِرَ سَهَلُ الدَّوَاءِ ، وَقَدْ يَزُولُ وَيُنْسَى ، وَتَذَهَّبُ آثَارُهُ ! لَكِنَّ غَلْبَةَ  
النَّزَعَاتِ الْبَدُوئِيَّةِ ، وَالْعَصَبِيَّاتِ الْعَائِلِيَّةِ عَلَىِ نَظَامِ الْخَلَافَةِ خَلَفَ شَرُورَا شَرِحَنَاها فِي  
أَماَكِنَ أُخْرَى ، لَعْلَ مِنْ بَيْنِهَا رَخْصُ الْكَفَاءَةِ الْعَلْمِيَّةِ وَالْخَلْقِيَّةِ وَالْإِدَارِيَّةِ فِيِ الْأَسْوَاقِ  
الْتَّعَامِلِ ، وَاعْتِقَادُ الْكَثِيرِينَ أَنَّ التَّقْدِيمَ وَالتَّأْخِيرَ حَظْوَظُ عُمَيَاءَ أَوْ أَنَّهَا مِنْ قَبْلِ الْمَنَابِيَّاتِ التِّي  
قَالَ فِيهَا زَهِيرٌ :

رَأَيْتَ الْمَنَابِيَّا خَبِطَ عَشَوَاءَ مِنْ تَصْبِ

تَمَّهُ وَمِنْ تَخْطُئِي يُعَمَّرُ فِيهِمْ !!

وَهَذَا الْاعْتِقَادُ وَحْدَهُ قَاتِلٌ لِلْأَمْمَ ، فَكَيْفَ لَا يَنْالُ مِنْ رِسَالَةِ عَالَمَيْهِ كَالإِسْلَامِ ؟  
وَالْأَغْرِبُ أَنْ تَرَادُفَ الْفَسَادُ نَصْحَ علىِ الْمَيْدَانِ الْعَلْمِيِّ نَفْسَهُ ، فَرَأَيْتَ «عَلَمَاءِ دِينٍ»  
يَسْتَخْفُونَ بِالشُّورِيَّ ، وَلَا يُسَمِّحُونَ لَهَا أَنْ تَعْتَرِضَ الْحَاكِمَ إِذَا ارْتَأَىَ رَأِيًّا . . .

وَيَتَحَدَّثُونَ فِي جَرَاءَةِ أَنَّ الشُّورِيَّ غَيْرَ مُلْزَمٌ لِلْحَاكِمِ الْفِرْدِ ! وَهُمْ مَعْذُورُونَ فِي هَذَا  
الْخَبِطِ ! فَإِنَّ أَحَدَ الْمُفَسِّرِينَ شَرَحَ قَوْلَهُ تَعَالَى : «وَشَارِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ»<sup>(١)</sup>

فَقَالَ : «ثُمَّ امْضُ عَلَىِ الْأَرْشَدِ لَا عَلَىِ الشُّورِيَّ» !! . أَىَّ أَنَّ مَا اتَّجَهَ إِلَيْهِ هُوَ

(١) سُورَةُ آلِ عُمَرَانَ ١٥٩ .

الأرشد ! وما ارتأته الجماعة هو الأفسد !! وتذكرت وأنا أقرأ هذا اللغو قول فرعون لقومه  
 ﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشاد﴾<sup>(١)</sup> ... وكان فرعون يرى قتل  
 موسى ! لماذا ؟ يقول : «أَخَافُ أَنْ يُدَلِّ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ»<sup>(٢)</sup>  
 فرعون يخاف من فساد موسى !! هذا هو الرشاد الذي يجب أن يطاع .. !

ومأثور في سيرة الحكم الفردي الإغراق على المؤيدين والاتباع ، والشح أو الحرمان  
 للمخالفين والمعارضين ، والرأي النزيه لا يتماسك في هذا الجو النكد ، ولذلك كان  
 الحق مرآة وربما كلف الحياة نفسها ، أما الملق قباب واسع إلى الشراء والرفاهة . وهل ضاع  
 دين الله ودنيا الناس إلا بهذا المنطق الوضيع ? ..

ذهب رباط المبادئ وبقى رباط المأرب والمنافع ! ذهب الحب والبغض في الله ، وبقى  
 الحب والبغض لدنيا تنال ، أو لشخص يلتمس في جواره الجاه والمال ...

وذكرت قصة جرير مع عبد الملك بن مروان<sup>(٣)</sup> ، وهو خليفة خطير المكانة ، أو هو  
 المؤسس الثاني لدولة بني أمية ، جاءه جرير الشاعر ينشده قصيده المشهورة التي  
 مطلعها :

أتصحوا أم فؤادك غير صاح ... ?

فقال عبد الملك : بل فؤادك أنت ! إن مطلع القصيدة لم يسره ... !

ولكن الشاعر مضى حتى بلغ هذا البيت :

أَسْتَمْ خَيْرَ مِنْ رَكْبِ الْمَطَايَا ؟      وَأَنْدَى الْعَالَمَيْنِ بَطْوَنَ رَاحَ !

فطرب عبد الملك طربا شديدا ، وقال : بل نحن كذلك .. خير من ركب المطايا ،  
 وأسخى الناس أيادي .. وانفتح بيت المال ليأخذ جرير منه ما يشتهي ! وعطايا الخلفاء  
 للمداحين لا نهاية لها ، ألهمذا أنشئ بيت المال ؟ !

قال لى صديق : ذهب وفد من مصر إلى واشنطن عقب اتفاق «كامب ديفد» وكان

(١) سورة غافر ٢٩ .

(٢) الخليفة عبد الملك خليفة عظيم ورع مجاهد ، وهو من فاتحى إفريقية والمغرب ، لكن هذا لا يعني أنه بلا أخطاء .

يضم أكثر من مائة شخص ، وأقيم لهم حفل طعام في البيت الأبيض ، فكتب صحافي أمريكي يستنكر إقامة حفل لهذا العدد الكبير ، وقال : إن دافع الضرائب في الولايات المتحدة لم يقدم ماله مثل هذه الأغراض ! وأسرع البيت الأبيض يعلن أن نفقات الحفل قامت بها إحدى الشركات ، ولم تتحملها الدولة . . . !!

إن المال العام ليس كلاماً مباحاً ، يتغوض فيه الحاكمون بغير حق ، وصون هذا المال جزء من النزاهة التي تحترم بها الدولة . . . وسيرة الخلفاء الراشدين بالغة الدقة في احترام المال العام ، ولأمر ما رفض علماء الإسلام إضفاء صفة الرشد إلا على دولتهم وحدها ، ثم ضمموا إليها خامساً هو عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

إن علماءنا قد يلهموا دينهم ، والأئمة الأربع وهم من دانوهم في مكانتهم ، وجمهور المربين والدعاة ، التزموا بهذا النهج ، ثم جاء علماء سوء رأوا الجبن أنجبي فأثروا الصمت ! ثم جاء خلف آخر يرى إرضاء المستبددين من الدين . . . !

الخلافة الرشيدة أبوبة محبة ، وريادة حانية ! ورباط بالأتباع والأعونان على إنجاح رسالة ، وحماية دعوة ! أما الخلافة غير الرشيدة فالمحور الأول لنشاطها هو امتلاك السلطة وإدامتها ! وتحجى الأهداف الأخرى تابعة . . . .

وتأمل في معاملة القادة الكبار بين هذين المثالين : لما قُتل النعمان بن مقرن في معركة «نهاوند» بعد ما أجهز على المحسية والكسروية ، جاء البريد إلى المدينة يحمل نبأ استشهاده ، وكان عمر في إحدى مراحيل الطريق يتشفّف للأنباء ، فلما سمع الخبر شهق بالبكاء حتى أن عامل البريد فزع لحزنه ، وقال لأمير المؤمنين مسلياً : ليس هناك غيره من القادة أصيّب ! فقال عمر : هناك فقراء المهاجرين الذين لا يضرّهم أن يسمع بأسمائهم عمر !

ذاك على عهد الخلافة الرشيدة ! أما في عهد آخر فإن قادة الفتوح العظام في المشرق والمغرب لقوا معاملة منكرة ! قُتل محمد بن القاسم فاتح السندي ، وأهين وعزل موسى بن نصير فاتح المغرب والأندلس ، لأسباب لا تشرف نظام الحكم . . . ولو أن الخلافة الرشيدة باقية ، لكان للقادة العظام شأن آخر ، بل لمضي الفتح في طريقه يؤدب الأوروبيين ، ويتيمان حيث وصل إلى جنوب فرنسا ، وجبال سويسرا ليشق طريقه نحو

النمسا والبلقان والقسطنطينية في شرق أوروبا ، وبذلك يعود إلى الشام متتمماً الرحلة  
التي بدأت من مصر . . .

إن الخلفاء الأكاسرة لا يكتترثون بذلك ! لقد هاجت القومية العربية بفترة في  
دمائهم ، وعادت إليهم حمية الأنساب ، وتقاليد البسوس وداحس والغبراء ، ورجحوا  
وساويس هذه العروبة الرعناء على وصايا الدين الذي ما كانوا قبله شيئاً مذكورة ، وهزموا  
آخرها بعد ما نصرهم أولاً . .

وإن تعجب فاعجب لبعض العلماء الذين يريدون أن يسوسوا العالم اليوم لا بمواريث  
الخلافة الراشدة ! بل بتقاليد البدو ، ومزاج القبائل في الصحراء ، محرفين الكلم عن  
مواضعه ، وذاهلين عن فطرة الله في الأنفس وأياته في الآفاق . .

\* \* \*

## تسلل آخر في الميدان الاجتماعي

إذا كانت الخلافة الراسدة قد تلاشت أمام تقاليد العرب القدية وأمسى للشوري مفهوم مائع غامض لا وزن له ، فإن هناك هزيمة أخرى لتعاليم الإسلام في الميدان الاجتماعي ينبغي أن نلقى الأضواء عليها .

من بدء الخليقة والنوع البشري يحيا ويبقى بالزوجين الذكر والأنتي ، ولكل الجنسين خصائصه التي فطره الله عليها ، ويمكن القول بأن الذكورة أخشن وأقوى من الأنوثة ، وأن الأنوثة أصبر وألين من الذكورة ، ولكن كليهما يكمل الآخر ، فهذه من تلك ، وأواصر النسب إلى آدم واحدة أو هي كما عبر القرآن الكريم : ﴿لَا أُضيع عمل عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾<sup>(١)</sup> ، ولكن ازدراء الأنوثة ، واستضعافها ، وإنكار حقوقها الطبيعية خلائق مألوفة من زمن بعيد ، وبعض الجامع الأوربية كان يتساءل : هل المرأة من الجنس البشري العادي كالرجل؟ وهل لها روح مثل روحه؟ والقوانين الأوربية على مر التاريخ كانت تكرم الرجل وتنتقص المرأة ... .

وهناك نماذج وحشية لإنكارات حق الحياة على المرأة ، ففي بعض أرجاء الهند كان الزوج إذا مات وجب أن تموت المرأة معه مهما كانت صحيحة البدن ! وليس أغبى من الهند - في هذا الحكم - إلا عرب الجاهلية الذين يتشاءمون لولد الأنثى ، وقد يتدونها فتلطف أنفاسها الواهنة تحت التراب !

إن الأب السامي القدر يخاف إذا عاشت البنت أن تجرّ عليه العار ، وما العار عند هذا الخلق ؟

يقول عربي ضائق بالأنتي : والله ما هي بنعم الولد ! نصرها بكاء ، وبرها سرقة !! يعني أنها لا تحسن القتال فتنصر عشيرتها ، ولا تقدر على الكسب فتبشر أهلها من مالها ، وإنما تأخذ من مال زوجها لتعطى أهلها إن كانوا فقراء .

(١) سورة آل عمران ١٩٥ .

وسائل : من وراء تجهيلها فى فنون الحرب ؟

إنه أبوها الكاره لها !

ومن وراء تجهيلها فى كسب الرزق ؟ الجواب نفسه ...

إن اليهوديات فى فلسطين المحتلة يزرعن الأرض ، ويحملن السلاح ، ويقاتلن رجالنا بشراسة ...

وقد جاء الإسلام فاحترم الأنوثة ، واستبعد كل النظارات السيئة إليها ، ورفض أنواع الإهانات التي كانت تلقاها ، وعدّها جزءاً من حقيقة الإنسانية التي جاء لتزكيتها ...  
وعلى المجتمع العربي على عهد السلف الأولين المرأة تتردد على المسجد من الفجر إلى العشاء ، وتتعلم الدين كما يتعلم الرجل ، وقد تقاتل مع المقاتلين ! وقد تداوى الجرحى ، وتدفن الموتى ، وتأمر وتنهى وتنصح ... إلخ .

إلا أن التقاليد العربية الجاهلية التي كانت تحتاج الأنوثة قديماً ، وتجاوز حقوقها المادية والأدبية ، عزّ عليها أن يطفر الإسلام بالمرأة هذه الطفرة ، فعادت تسلب ما منع الدين ، وتنكر ما أقرّ ، وتعامل المرأة على أساس أنها متعة وحسب !

ومن ثم صدر تحريم - من جهات غير معروفة - بـالاتصال امرأة في مسجد<sup>(١)</sup> وظل هذا الحظر قرابة اثنى عشر قرناً ، ولا يزال إلى الآن يقاوم نصائح المصلحين .

وصدر تحريم مثل الأول بـالـأـنـتـنـسـبـ إـلـىـ مـدـرـسـةـ ، وـلـوـ لـحـوـ الـأـمـيـةـ !ـ بـلـهـ التـعـلـيمـ  
المـتوـسـطـ وـالـعـالـىـ ...ـ وـلـوـ ضـغـطـ شـدـيـدـ مـنـ أـوـلـىـ النـهـىـ مـاـ أـمـكـنـ تـعـلـيمـ النـسـاءـ فـىـ  
عـصـرـنـاـ ،ـ وـلـبـقـيـنـ لـاـ يـعـقـلـنـ شـيـثـاـ مـنـ أـنـوـاعـ الـعـلـومـ ..

وصدرت فتاوى مكذوبة بأن وجه المرأة عورة «ولو من غير فتنة» وصوتها عورة وأخذت الفتوى حكم الأمر اللازم وليس الرأي الاحتمالي ، وقيل إن المرأة إجمالاً لا علاقة لها بالنشاط الثقافي والاجتماعي ! ، أما سائر الأنشطة المدنية والعسكرية فالوجود النسائي فيها منكر غليظ جملة وتفصيلاً ... !

والحق أن الشريعة الإسلامية في شئون النساء تخرج من بين فrust ودم ، فالجاهلية العربية التي فرضت نفسها مئات السنين مرفوضة ، والجاهلية الأوروبية الوافدة مرفوضة

(١) من الغريب أنهم في هذه القضية يفضلون كلام بعض الصحابة الذي لا يعدو أن يكون استحياءً من بعض الخلافات - على كلام الرسول الواضح الحاسم في أنه لا يجوز منع إماء الله مساجد الله (!!).

هي الأخرى ، وبعض المحدثين في الإسلام يبغى العودة بالمرأة إلى التقاليد البدوية ، أو الأوضاع الجاهلية المزدرية للأنوثة ... كما أن بعضاً آخر يريد تقليد أوروبا في كل شيء ، وأحكام الإسلام أشرف من أن يثرثر بها هؤلاء وأولئك ...

قدم إلى شاب متدين كثيباً ألفه عالم يدعو للنيل ، يحكم بالفسق على السواقة من النساء ، ومددت بصرى إلى السطور الأولى فوجدت الرجل يقول : إن الإسلام حرم الزنا فوجب ستر الوجه سداً للذرية !

قلت : استدلال ساقط ، فقد طلب الإسلام كشف الوجه في الحج والصلوات ، فهل كان بذلك يحرّض على الفاحشة ؟ وروت كتب السنة الصلاح نحو عشرة أحاديث تفيد أن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى الوجوه مكشوفة فما أنكر ذلك ، فهل كان يقر المنكر ؟ واستثنى القرآن الكريم الزينة الظاهرة مما ينبغي ستره ، فأين تكون هذه الزينة يا ترى ؟

الحق أن نصوصاً صحيحة أهملت عمداً ، أو حرّف معناها ، وقدّمت عليها أحاديث موضوعة تحض على جعل النساء أميات ، أو أخبار واهية تفيد أن المرأة لا ترى أحداً ، ولا يراها أحد ، وهي آثار منكرة تخالف مخالفة جلية ما ثبت عن السلف الأولين بطريق التواتر أو الصحة ، وقد أخذ المسلمون في تجاهيل النساء ، وإهمالهن حتى أصبحن في العصور الأخيرة من سقط المتع ، وأصبحت الأنوثة رمز الهوان ، وتفاهة الشأن ...

كنت يوماً أطالع إحدى الصحف ، وكان في صدرها صورة لرئيسة وزراء إنجلترا «تاتشر» فقال لي شاب يرقبني : أترى هذه الصورة ؟ قلت نعم ! فاستتنى : أيعجبك هذا ؟ قلت : قومها يصفونها بأنها امرأة حديدية ! وقد أتعجبني موقفها في مجلس العموم وهي تطالب بإعادة عقوبة الإعدام إلى القانون الإنجليزي . صحيح أن المجلس خذلها ، بيد أنى أراها أذكى وأبصر للحق من مائتى عضو عارضوها . وانتصرت عليها ...

إن مسؤوليتها عن الأمان أقنعتها بضرورة القصاص ، وهي أرشد وأعدل من الرجال الذين قاوموها !

وارد الشاب مقاطعني ، فقلت له : وشيء آخر سرني منها عندما حاربت إنجلترا

الأرجنتين - وكانت هذه المرأة تقود قومها - رئيت ترتدي السواد باستمرار ، كانت ترى كل جندى يقتل من أبناء وطنها أخا ، أو ابنا فهى تلبس عليه الحداد ، وترفض كل شارة للسرور والبهجة !!

إنها فى نظرى أفضل من حكام فى الشرق لهم شوارب ولحى !

قال الشاب : ألا ترى رأسها العارى ؟ قلت : أدب إسلامي ينقصها ، والإسلام يرى أن الرأس عورة يضرب عليها الخمار ، وسواء كانت العورة مغلظة كما يقول الأئمة أو مخففة كما يقول المالكيون ، فالشعر ينبغي ستره احتراما لتعاليم الدين . وكل ما أضمه إلى هذا الحكم أن داخل الرأس أهم من خارجه أعنى أن الذكاء أو الغباء والعلم أو الجهل قضايا أخطر من غيرها ، ولا تغضن من الأدب المطلوب .

### لأنريد النمط ولا التقاليد الجاهلية

وربما سارع البعض إلى اتهامى بالميل إلى الحياة الغربية ، وقبول وضع المرأة فيها ! وجوابى أنى أنكر هذه الحياة ، بقدر ما أنكر المواريث التى ألت إلينا ترخص الأنوثة ، وتحمّد إنسانيتها ، وتستكثر عليها حقوقا منحها الله إليها ..

إن لا وامر الله مكانتها العالية ، وإنى لأرفض إعطاء هذه المكانة تقاليد قبليّة ما أنزل الله بها من سلطان .

إن المسلمين فى الأعصار الأخيرة فتكت بهم أمية طامسة ، وكانت بالنساء أفتوك ! وغابت عنهم هدایات الله فى تفتيق الألباب ، وتنمية الفضائل ، وكانت عن النساء أبعد ! واختفت حقيقة الإنسان وراء تزاويق ومراسم مفتعلة ، وكان نصيب النساء بعد هذا الاختفاء أن أمسين أجسادا تُلف بالثياب ، وترى وراء الأبواب ، فلا علم ولا عمل ، ولا رأى ولا نصح ، ولا عبادة ولا جهاد .

إن الجاهلية القديمة سمحت لنسوة تقبيات أن يشاركن فى بيعة العقبة ، ما وضعت على أيديهن قيدا ! أما المسلمون فى القرون الأخيرة فيستحيل أن تسمع تقاليدهم بذلك ! حدث فى حروب الرادة أن أسر خالد بن الوليد مجاعة بن مرارة سيد أهل اليمامة ، فأوثقه ورمى به عند أمراته أم تميم فى فسطاطها وحفظت المرأة أسيرها . فلم ير الأسير منها إلا الشرف والصدق !

وجال المرتدين جولة هزمو فيها المسلمين ، واقتحموا فسطاط خالد ، وحمل رجالُ  
منهم بالسيف على أم تميم ، فألقى الأسير رداءه عليها وقال : أنا لها جار فنعمتُ الحرّةُ  
والله ما علمت ! دعواها وعليكم بالرجال !

ثم عادت الكرّة للMuslimين . واستعادوا الفسطاط ، وأخذوا يقتلون محظيَّه ،  
ووضعوا أيديهم على الأسير ليقتلوه ! فقالت أم تميم : أنا له جارة .. فتركوه .  
كانت للمرأة شخصية ، ومكانة فلم يحاول أحد مراجعتها أو تخطّتها ، ونحن  
نعرف حديث : « قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ » !

أما الأعصار الإسلامية الأخيرة ، في بين المرأة وهذه الأخبار بُعد المشرقين ..

أحياناً تملّكتني الحيرة وأنا أوازن بين الجاهلية العربية ، والجاهلية الأوروبيَّة القدِيمَة أيام  
الصقالية والإغريق .. التماثيل اليونانية والرومانية تنحت مشكوفة السُّوَاء للرجال  
والنساء عموماً على عكس الأدب والحياء الظاهرين في تماثيل قدماء المصريين ! آلهة  
الإغريق منحلة وشاذة . ومجالس الفلاسفة قد يقع فيها الخنا ، وقد يرى بعضهم  
إشاعة النساء .. !! أما العرب الأقدمون فأسس خلائقهم التحفظ ، وإن وجدت أنديَّة  
فاجرة في قري المؤتفكة . وسمع إفحاش سخيف في شعر امرئ القيس مثلًا ..

لندع البحث التاريخي في طبائع الأم ، ولا داعي للربط بين الأمس البعيد واليوم  
الحاضر ولنذكر ما ن قبله وما نباءه في العلاقات بين الجنسين على ضوء من الدين  
وحده ، ودون اكتراش لطبائع الشعوب ، أو مزاجها في التحليل والتحرّم ، إنني أشعر  
بمدى تسفلُ الغرب عندما تطيع تقاليده بعفة فتيات لم يتجاوزن بضعة عشر عاماً من  
أعمارهن . وأشعر بمدى قسوة الشرق عندما تبقى نسوة أبكاراً في بيوتهن وقد بلغن  
الستين والسبعين ...

أى دين يقبل هذه التقاليد أو تلك ؟؟

التسؤل الجنسي في الغرب محاً قواعد الحلال والحرام ، فاستُبيحت الأعراض  
طوعية وكراها ، وتقالييد الكبت عندنا عسرت الزواج بعلل مفتعلة ، وبدأت تجرف  
الشباب إلى الفاحشة .

وناس من المتحدثين باسم الإسلام يحرسون هذه التقاليد ، ويزدادون بها تشبيثاً كلما  
رأوا مبادل الغرب وفتونه ، ناسين أنهم يجرؤون المسلمين إلى بلاء مبين ..

وأبادر إلى القول بأنني التزم التزاماً تماماً بتعاليم ديننا الحنيف ، ويستحيل أن أتجاوز نصاً قاطعاً .

أما النصوص المحتملة ، والاجتهادات الأخرى ، فقد اقتنعت بأمرتين :  
أولها : إن تراثنا الفقهي بحر جُلُّ ، وأن فقهاءنا فعلوا الكثير الجدير بالاحترام في خدمته ونفع الناس به ، ولكن الزعم بأن الصواب حكر على مذهب عينه ، وأن الخطأ حكر على آخر زعم بعيد عن الحق .

والثانية : إن من حقنا الموازنة بين الأقوال المروية و اختيار ما نراه أرجح دليلاً وأجدى على الناس وأصلح لتبليغ الدعوة .

ونتيجة لهذا الموقف فقد رفضت المذهب القائل بأن الأعجميَّ ليس كفينا للعرب(١) ، ورأيتها لوناً من التفرقة العنصرية ، والمغالاة في الاعتداد بالأنساب ، ولم أحترم إلا الدين والتقوى والكفاءة الشخصية ..

كما رفضت كل إلغاء لإرادة المرأة في الزواج ، ولم أعتبر من مبادرتها للعقد إذا اقتضى وضعها ذلك ! ورفضت الطلاق البدعى وأهدرت آثاره كلها !! وأنكرت القول بأن وجه المرأة وصوتها عورة(٢) كما يرجف الجاهلون ، وحاربت ذلك من التعليم كما حاربت بقسوة إغلاق المساجد في وجهها ، ولا يزال جمهور من أدعياء التدين يفعل ذلك ..

وقبلت شهادة المرأة في جميع القضايا المدنية والجنائية في حدود النصاب المشروع ، ولم أفهم وجهاً لمنعها من الشهادة في الحدود والقصاص .. !! وأيدت في ذلك الفقه الظاهري !!

وللمرأة ذات الكفاية العلمية الإدارية والسياسية أن تلى أي منصب ما عدا منصب الخلافة العظمى ، وتستشار وتشير ، ولرأيها وزنه بقدر ما فيه من حق .

ولا يسوغ - لا عقلاً ولا نقاً - أن يخلو رجل بامرأة ، والاختلاط على الصفة المألوفة في أوروبا مرفوض ، ولكن اختلاطاً على النحو الذي كان في المسجد على عهد السلف لا مانع منه ، ويجب أن تحكمه أدب الإسلام في الاحتشام وغض البصر واتقاء الريبة وانصراف كل امرئ إلى واجباته ..

(٢) إلا إذا تيقنت الفتنة .

(١) أحد المذاهب يرى عدم زواج الأعجمي من المرأة العربية .

وينبغى تعليم النساء قتال الشوارع والبيوت من شقة إلى شقة فإن أعداء الإسلام يحتلون أقطارا كبيرة منه ويهددون أقطارا أخرى ، والجهاد - والحالة هذه - فرض عين على كل رجل وامرأة .

عندما كنت أزور الجزائر سمعت باسم السيدة فاطمة السومرية التي قادت جيشا من أشجع الشباب ، وهزمت عدداً من الجنرالات الفرنسيين في معارك ضارية !! واستغربت لأن اسمها - وإن ذكر باحترام كبير - يُطوى على عجل . . .

قلت : إن الفرنسيين يعدون «جان دارك» قدسية ، ويسلكون اسمها بين أكابر القادة ! ولا يستحقون من إبداء الاحترام العميق لذكرها بينما يعدها الإنكليز الذين حاكموها وأعدموها ساحرة مشعوذة . . .

قلت لمن يحدثني من الجزائريين : خلّدوا سيرة بطلتكم هذه . ودرّسوها للبنات في المدارس والمعاهد ، فالذكرى تنفع المؤمنين ! . . . لماذا هذه الغمط ؟؟

من المخزن أن ينتقل ازدراء الأنوثة من تقاليد الأعراب والصغار إلى جاهليتهم الأولى إلى المجتمع الإسلامي ، ويظهر هذا الازدراء في أفكار وأحكام وأخلاق تشيع بين الناس وكأنها تعاليم دين ! بل لقد حرفَ كلام عن موضعه وأولت نصوص ، وضعف صحيح وصحح ضعيف ، لا شيء إلا لغمط الأنوثة ! وأكاد أجزم بأن سوء التربية في قرون مضت إلى يوم الناس هذا يرجع إلى جهالة النساء وعجزهن إلا عن الوظائف الحيوانية ! .

كما أن تطلع قائدات النهضة النسوية إلى الغرب ، يعجبن ويقتبسن منه ، يرجع إلى العرض المكذوب لتعاليم الإسلام ، أو بتعبير أدق إلى عرض عادات وأحكام جاهلية على أنها كتاب الله وسنة رسوله ..

إن جمهرة من علماء الدين وضعت صعوبات رهيبة أمام تعليم المرأة في شتى المراحل ، ولم تستسلم إلا كارهة ! . وهي الآن تضع ذات الصعوبات أمام تردّد المرأة على المسجد ! أما بقية المقررات الإسلامية التي ذكرناها آنفاً فهم يقاومونها كما يقاومون الكفر ! .

من عشرين سنة كان القضاء الشرعي في مصر يأمر الشرطة باقتياض المرأة إلى «بيت الطاعة» مadam الرجل قادرًا على نفقتها ، ضاربًا عرض الحائط بكرامة المرأة للزوجية ، ومطالبتها بإنهاء هذه العشرة !! وكان أهل الزوجة يهربونها من بيته ويحتالون

على إبطال هذا الحكم .. ولغطت الصحافة بهذا التشريع المهدى لحقوق الإنسان ونالت من كرامة الدين نفسه ثم جاء أحد وزراء العدل فأصدر أمراً بعدم تنفيذ هذه الأحكام ، وبذلك أنقذ المرأة من قسوة الشريعة عليها .. !

وكتب يومئذ مقالاً نشرته «الأهرام» بحروف كبيرة شرحت فيه حكم «الخلع» وثبوته بالكتاب والسنة ، وقلت : إذا كرهت المرأة البقاء مع زوجها رفعت أمرها للقضاء ، وردت ما أخذت من مهر ، وحكم القاضى بفسخ العقد القائم أو إيقاع طلاقه تنهى النزاع ، ولا معنى لاعتقالها وجراها إلى أحضان رجل تبغضه بقوة الشرطة ، أو الجيش !!

وحُبِّذَتْ ما فعله وزير العدل ، وقلت : إنه طبق الشريعة ولم يخرج عليها كما يزعمون ..

إن الذى كان يحدث هو بعض التقاليد البدوية المتسللة إلى فقهنا فى غيبة الوعى الصحيح وقد شعرت بحرج بالغ عندما صدرت من أحد العلماء<sup>(١)</sup> فتوى بأنه - يحرم على المرأة أن تقود سيارتها ! إذ قال لى صحافى أريب : إن الحضارة أمكنت المرأة من غزو الفضاء ، ولا يزال الدين يحرّم عليها أن تقود سيارة على ظهر الأرض ؟ ! أليس من حق الناس أن يسوء ظنهم بالدين ويقصوه عن شتون الحياة ؟ قلت : ما حرم الإسلام على المرأة أن تقود حماراً ولا أن تقود سيارة ! وأحسب أن ظروفًا محلية أوجت بهذا الحكم ! وعلى أية حال فهو كلام إنسان ، وليس قول الله رسوله ..

إن الإسلام يقول : ﴿لَا أُضيّعُ عَمَلَ مَنْكُمْ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أُثْنَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾<sup>(٢)</sup> ولكن التقاليد عند بعض زاحمت الإسلام على تعاليمه ، ونالت منها ونحن نتبع الإسلام وحده ، ونرفض سائر التقاليد الأخرى عربية كانت أو غربية ..

(١) هذا العالم قاس الأمور على أمور اجتماعية واقتصادية عنده ، وقد يكون له الحق في تحفظه ، لكن ما كانا نريده منه ، ونحن نثق في إخلاصه وورعه أن لا يعم ، بل يترك الأمور مفتوحة لأن الأصل الإباحة ، والتقييد قد يجوز كعارض طارئ استثنائي .

(٢) آل عمران ١٩٥ .

## ضرورة غربلة المنشور من التراث والحضارة الحديثة

نقول : يجب أن تغربل التقاليد الشائعة بيننا غربلة شديدة حتى لا يبقى منها إلا ما كانت له بالشريعة صلة ، وعلى قدر قوة هذه الصلة وضعفها يكون استمساكنا بهذه التقاليد أو إهمالنا لها . . ! إن نجاح التصنيع في عالمنا العربي لا يتم إلا بعد الإجهاز على التقاليد التي تزدري الاحتراف وتؤخر أصحابه ! ربما كره البدوي أن يخرج من تحت آلة وهو مُعَفِّر الجبين أو مُرْفَتُ الكف ، وربما ظن الشرف في عمل أنضر !

إن هذا الفكر لا وزن له ، ولا صلة له بالدين ، وكل ما ابني عليه من أحكام فقهية أو آثار اجتماعية فهو باطل ، وخير لنا أن نتوب منه توبة نصوحا ..

والتقاليد التي تزدري الأنوثة ، وتميل إلى اتهام المرأة وتجهيلها ومنع ترددتها على المسجد واستبعادها من ميدان الأمر والنهي والغضون من كفاءتها إن أحسنت ، ومضاعفة العقوبة عليها إن هفت ، تلك كلها عادات من روابس الجاهلية الأولى ، والأخذ بها مضاد لتعاليم الإسلام نصاً وروحًا قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُولَئِكَ بَعْضٌ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقْبِلُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطْبِعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيِّرَ حَمْمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾<sup>(1)</sup> والإسلام ليس غرائز جنس ما ، ولا عادات بلد ما ، إنه تعاليم نزلت من السماء ولم تنبت من الأرض .

وقد لاحظت سلطان البيئة في بعض الأحكام الفرعية يختلف بين قطر وقطر ، فرأيت ثلاثة شروح لـ «متن خليل» الذي يسود المغرب العربي تقرر هذا الحكم «وانتقام المرأة أى تفطية وجهها إلى عينيها في صلاة أو خارجها - والرجل أولى - مالم يكن عادة قوم فلا يكره في غير الصلاة ويكره فيها مطلقا لأنه من الغلو في الدين» وكراهة النقاب هنا غير طلبه في بيئات أخرى . . .

وأرى أن نتفرس بقوة في المواريث التي آلت إلينا ، وعزم الدين ليست موضع ريبة ، إنما تتفاوت الأنظار في القضايا الثانوية ، ومن حقنا أن ننتقى من أقوال مجتهدينا ما يدعم أمتنا في هذا العصر ، وما يجنبنا مزالق وقع فيها غيرنا ، وما يبعد عن الإسلام تهماً هو منها براء ، إن تجارب عديدة يجب أن نعيها من مسيرتنا التاريخية الطويلة خلال أربعة عشر قرنا ، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين . . .

. ٧١ (١) التوبة

والحق أن الإسلام تحمل العنت من الساسة الذين حكموا باسمه ونسوا هداه ! ومن المجتمعات التي انتمت إليه ثم قدمت مواريثها وأهواها على مطالبه ووصاياته .

وقد ترَنحت الدعوة الإسلامية وهي تشق طريقها إلى أقطار العالم في العصور المتأخرة - والوسطى - لأنها حملت مع تعاليم الإسلام أخلاطاً أخرى غريبة على وحى الله !

بل إن المسلمين داخل أرضهم ذاتها عانوا من إغفال الشوري وتحكم الفرد ، ومن فقدان المال لوظيفته الاجتماعية ، وعانوا من تحقيير النساء وحبسهن دون علم ولا عبادة ولا تناصح ، ثم نشأ عن ذلك هبوط إنسانيٌ عام أزرى بهم ، وأسقط على مر الأيام مكانتهم ورسالتهم وقدف بهم في مؤخرة القافلة البشرية بعد أن فقدوا الصدارة عن جدار لا عن ظلم ..

فلما بدأوا يصحون ويتحركون أخذت عقابيل الماضي تعترضهم ..

ومن عجب أن تهفو الجماهير إلى الشوري ، فإذا متعلم تافه يفرغ الشوري من فحوها ليخدم الاستبداد السياسي ..

وإذا مدع للغيرة يقول : المرأة لا ترى أحداً ولا يراها أحد !

كأن عصر النبوة كان يقبل المنكر عندما رص النساء صفوافاً في المسجد ، وعندما قبلهن عوناً للجيش في بعض المعارك ...

إن الإسلام يراد هدمه باسم الإسلام !

والقائم بهذه المهمة شيوخ أو شباب لا هم من أهل الذكر ولا هم من أهل الفكر ...  
وفي عماء من مخلفات المعاصي السياسية والاجتماعية ، تحت ضغط الهزائم ،  
التي نكست أعلام الإسلام في أكثر من ميدان ، ومع صحوة من مراجعة النفس  
ومحاسبة الضمير ، ومقارنة الأمة العليلة بالأمم الغالبة ، شرع المصلحون يتكلمون  
ويتساءلون : ما النظام الإسلامي المنقد وسط هذا الطوفان . !!؟

يقول محرر مجلة الفكر الإسلامي السودانية : « إن القضايا المعاصرة التي تحتاج إلى نظر عميق واجتهد جديداً كثيرة ومتشعبة ! إلا أنها يمكن أن نشير إلى أهم هذه القضايا إذ لا يمكن بناء دولة حديثة دون البت فيها بصورة أو بأخرى ...

من هذه القضايا قضية التغيير الاجتماعي - أو الانقلاب الإسلامي كما يسميه

أبوالأعلى المودودى - كيف يتحقق فى ظل الدول العلمانية القائمة اليوم فى بلاد المسلمين؟ هل يتم عن طريق الثورة الشعبية أو الانقلابات العسكرية؟ أم الإصلاحات القانونية من داخل النظام القائم؟ وهل بعض هذه الطرق يجوز فى أقطار معينة ولا يجوز فى أخرى؟ وما هى النزرة إلى هؤلاء الحكام العلمانيين ومعاونיהם ومن رضى بحكمهم من عامة المسلمين؟

ومن هذه القضايا مشكلة نظام الحكم والإدارة فى ظل دولة إسلامية . هل تسمح هذه الدولة بالأحزاب والتجمعات السياسية؟ وهل يمكن أن ينفرد حزب إسلامي واحد بالسلطة أم تمنع جميع الأحزاب؟ كيف يكون شكل النقابات والاتحادات المهنية؟ وما دورها فى ظل نظام إسلامي؟ كيف تمارس الشورى ، وكيف تنظم أجهزتها؟ ومن هم أهل الحل والعقد فى الدولة الحديثة؟ وكيف يتم اختيار الحاكم وكيف يعزل؟ وما هو وضع الأقليات غير المسلمة؟ وهل يجوز إشراكها فى الأجهزة التشريعية والتنفيذية فى الدولة؟ وهل يجوز إشراك المرأة فى هذه الأجهزة كذلك؟ ما هى علاقات الدولة الخارجية بالدول القائمة فى العالم الإسلامى . والدول المجاورة ، والدول الكبرى؟ إلى أى حد تناصر الدول الإسلامية المسلمين والمستضعفين فى بلاد أخرى؟ » .

إننا تحدثنا فى هذه القضايا ، وتحدثت فيها المعنيون بحاضر الإسلام ومستقبله ، وكان الحديث مشوبا بالمرارة ، يستكشف الحقائق بحذر حينا وبجرأة حينا آخر ... والسبب أن الاستسلام للواقع الكثيب سيطر على فقهنا عدة قرون ، فرضى باغتصاب السلطة ، وأعطى الحكام المتغلبين صفة شرعية !! ورضى بانحرافات ثقافية واجتماعية أخرى ، كما يرضى العليل بصحة داء عزدواؤه .

ويخيل إلى أن انهزام دولة الخلافة الراشدة ، ثم انهزام القوى المعارضة كلها فى أغصان وأمصار شتى ، ترك فى النفوس عقدة لا تحل ...

بيد أن الله لا يرضى أن تهمل هدایاته على هذا النحو ، ثم يترك المفرطين دون عقاب !

لقد قلنا مراراً : إن سنن الله الكونية تثأر من يتجاهلها وتواجهه بعواقب تفريطه ! وأمة يستقر فيها اغتصاب الحكم<sup>(١)</sup> وتعشش في أجوائها الخرافات والانحرافات ، لابد أن تدفع ثمن هذا السلوك الموجع ، لن يعني عنها ادعاؤها للإسلام ، لاسيما إذا كان حكام الدول «الكافرة» أعدل ، ومعاملاتهم لشعوبهم أجدى وأرحم ، وإذا كانت هذه الشعوب أدنى إلى منطق الفطرة في علاقاتها الداخلية .

ونحن - مسلمي العصر الحاضر - نذوق ثمار تفريط قديم ! ولكننا ورثنا نظرياً الوحي الإلهي مصوناً ، كما ورثنا رغبات عميقة في العودة إلى الحق والتوبة إلى الله !!

وأرى ونحن نبني هيكلًا جديداً للديننا ودنيانا ، أن ندرس الحضارة الجديدة بما لها وما عليها ، وأن نستفيد من تجاربها في دعم مقرراتنا ، ولا يعني أبداً التجاهل الجهود الإنسانية التي بذلت في إبداع هذه الحضارة .. كما ينبغي اتقاء سوئها وغرورها ، وشرها ، وافتراضاتها المفضوح على غيرها ..

إن لدينا مواريثة نفيسة في تاريخنا الثقافي والسياسي لا يجوز إنكارها ، بيد أن هذه النفائر اختفت في ركام من عهود الانحلال والانحراف ، وما أطولها في ماضينا ! والأساة التي نواجهها الآن أن كاتبين وموجهين يذهبون إلى هذا الماضي ويعودون منه بما يضر ولا ينفع ، وربما نقلوا منه أسانيد للاستعمار الداخلي ، والخلفلة الاجتماعية التي نعاني منها ... .

إن مصادر الأسوة العلمية والعملية معروفة وممضبوطة في فقها ، وقد بُرِزَ رجال كبار في تاريخنا العلمي ، ما زعم عاقل العصمة لهم ، ولا طالبنا باتباعهم في كل ما قالوا وفعلوا .

خذ مثلاً «أبا حامد الغزالى» إنه رجل من ألمع رجال التربية والأصول والفقه والفلسفة ، وجوانبه المشرقة كثيرة ، ونحن نقتبس منه بدائع وروائع ... لكن هل تتبعه في قصوره في علم الحديث ؟ هل تتبعه في موقفه السلبي من حكام عصره<sup>(٢)</sup> .

(١) في بعض الفترات كانت الأمة تناه ولا تعرف من سيغتصب الحكم في الصباح !! .

(٢) لأبي حامد بعض مواقف إيجابية مع بعض حكام عصره ، ووسائل مشهورة ، وهي لا تذكر !!



وهم طراز ردىء؟ هل تتبعه فى غفلته عن طلائع الحملات الصليبية التى أكلت المسلمين يومئذ؟ إن الحسنات تستوقفنا ، فنتملأها ونستفید منها ! أما الهنات فتحذرها ونباعد أمتنا عنها ، وقد أفرزعننا أن يظهر فى صحوتنا الإسلامية المعاصرة رجال أغرار ، لهم قدرة غريبة على نقل الأخطاء وتبنيها ويعترتها فى طريق نهضتنا .

وقد استيقنت أن زبانية الاستعمار العالمى يستبشرون بهذا الصنف من الموجين الأغبياء ، وربما مكنوا لهم ورحبو بهم ، فليس أسعد لأعدائنا من شعب يغتصب قيادته سارق زعامة ، وليس أسعد له من بيته تدیره امرأة جهول ، وليس أسعد له من متدينين يستريحون لهذه الأوضاع ، ويحيون فى ظلها أنصاف بشر ، ويرغبون الناس فى ذلك على أنه الإسلام ...

\* \* \*



## أثر الأهواء والعصبيات على الدعوة الإسلامية

### العصبية الأوروبية: خصومة غير مشرفة

عالمية الإسلام ليست موضع جدال ، وقد نهض السلف الأول بواجبه في نقل الدين من الجزيرة العربية إلى ما وراءها من بربحر ! وعرفت دولة الإسلام الأولى أنها أمة ذات رسالة كبرى فكرست قواها المادية والأدبية لإبلاغها ...

وأصحاب محمد عليه الصلاة والسلام كانوا امتدادا لنوره وظهوره وشجاعته وجهاده ، وقد زودهم القرب منه بقدر هائل من الروحانية والتضحية وطلب الآخرة والترفع عن الدنيا ومحانها ، فلما اصطدموا بالضلال الجاثم على صدر الأرض من قرون استطاعوا فعلَ حده ، وكسر قيده ، وإطلاق الجماهير العانية تعبد ربها كيف تشاء ، وما كان إلا أصحاب محمد مَنْ يقدر على هذه المهمة الصعبة !

سيقول السفهاء من الناس : خرجوا من جزيرتهم مهاجمين ، وما كان هذا يجوز !  
ونقول : مَنْ الذين هاجمهم محمد ؟ في حياة محمد نفسه قاتلوا الرومان في مؤتة وتبوك فمن الذي جاء بالرومان إلى مؤتة وتبوك ، وهى بلاد عربية ؟ إن الرومان أوربيون احتلوا سوريا ومصر وغيرها ، ويسطوا سلطتهم على شمالى الحجاز ، فكيف يعتبر اجتياحهم لأراضي الآخرين دفاعا ، وإخراجهم من هذه الأراضي عدوا ؟؟

إن دراسة التاريخ بهذا التبعُّج ديدن الأوربيين ، وهم الآن ماضيون مع طبيعتهم فى عدّ العرب الذين يقاتلون «إسرائيل» إرهابيين مهاجمين معتدلين ! فإذا قلت لهم : إن هؤلاء العرب هم أصحاب الأرض وسكان مدنها وقرابها من قرون سحقيقة وإن هؤلاء اليهود طارئون من أيام ، قدموا من بولندا وروسيا وإنجلترا وأمريكا ، ولا حق لهم هنا ... قالوا في تبُّع : ولو ...

أهناك شيء غير القوة يمحو هذا الطاغوت ؟ إن القتال الذى أعلنه أصحاب محمد على الرومان والفرس هو أشرف قتال سجله التاريخ ، وهو وحده الذى أدب المتكبرين وأنقذ المستضعفين ، وليت هذا القتال - ببراعته ونتائجها - يتكرر فى الدنيا ليتحقق الحق ويبطل الباطل .. أيعنى ذلك أن القتال وظيفة النبيين والخواربين ، أو أنه حرف أصحاب محمد فى العالمين ؟

كلاً بداعه ، فقد شرح الله الغاية من رسالة محمد ، فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾<sup>(١)</sup> وشرح عمل المسلمين بين الناس ، أو النظام الذي يقيمهونه فقال : ﴿ وَلْتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> فالدولة الإسلامية تفعل الخير وتدعوه إليه ، وتعلم الحقيقة وتنشر أدتها ، وتأمر بالمعروف في الداخل والخارج ، وتنهى عن المنكر كذلك ، وهي مع السلام ضد العداون ، ومع العدل ضد الطغيان ، ومع الإنسانية ضد الحيوانية ، وعندما قاتلت كانت محكومة بقول الله لها : ﴿ وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾<sup>(٣)</sup>

والحروب الأولى في تاريخنا تحضرت الله ومشت في سبيله ، وفوجئت الشعوب السجينة داخل المصيدة الرومانية يقوموا بتفافها بـ«أتلانتيك» (الاستعمار) القديم ، ثم ﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾<sup>(٤)</sup> ، واحتفى كبر الرومان ، وسلبهم ونهبهم ، وارتفع نداء «الله أكبر» فعلم الناس أنهم أحرار ، وأن الأرباب السابقين سقطوا ... ! ، فشرعوا بدخولهم في الإسلام أفواجاً أفواجاً ، وإذا شمال إفريقية كله وغرب آسيا وشرقها حتى الهند والصين يتدفعون على الدين الجديد ... إن الفتوح العقلية والروحية كانت آلق<sup>(٥)</sup> شعاعاً ، وأقوى اندفاعاً من النجاح العسكري ، وما فعله الأصحاب والأتباع اتسم بطابع الخلود ، فالأنقاض التي حرروها هي كهف الإسلام إلى اليوم ، وهي التي تشتبك في كفاح ثقافي وسياسي مع الاستعمار الجديد ، ومع فداحة ما تحملت فهي ترجو الآخرة ، وترقب النصر الحاكم .

والذى نلحظه أنه مع انصرام عهد الراشدين لم يحسن الحكماء الرسميون - فى الأغلب - العمل للدعوة الإسلامية ولم ينتموا أجهزتها ، أو يلبوا مطالبها ، وتركوا للكتل الشعبية أن تقوم هي بهذا العبء كله أو بعضه ، وقد يعاونونها أو يهادنونها ! أما أن يرسموا السياسة ويتابعوا التنفيذ فلا !!

قد يقول قائل : هذا تجَنَّ على خلفاء أمية والعباس والعثمانيين ، فقد رفعوا راية

(١) سورة الأنبياء ١٠٧ . (٢) سورة آل عمران ١٠٤ .

(٣) سورة البقرة ١٩٠ . (٤) سورة الحج ٤١ .

(٥) أشد ضياء وظهورا

الدين وقاتلوا تحتها بقوة ! وماذا عساهم يفعلون مع أناس عرفوا الإسلام وعقائده ... جحدوا بها واستيقنوا أنفسهم ظلماً وعلوا<sup>(١)</sup> يذبحون عشرات ومئات من المسلمين لو أن واحداً منهم ذبح بقرة ! هل يجدى مع هؤلاء إلا السيف - ويضى المعترض فى مسائلتنا قائلاً :

وهل نسيت موقف أهل الكتاب المشحون بالبغضاء ؟ إن كراهيتهم للإسلام ترشح من معين لا يغيب ! وجمهورتهم تودّل خسِفَ بنا وخلت الأرض منا .

هؤلاء الصليبيون ما إن تمكنا قدّيماً من دخول «بيت المقدس» حتى ذبحوا سبعين ألف مسلم ، وحديثاً احتمروا بالجيش اليهودي ، وقتلوا بأفحش الأساليب أربعة آلاف في مخيمات الفلسطينيين بصبرا وشاتيلا .. ولم تتحرر الجزائر من أرجاسهم إلا بعد أن ضحّت بمليون ونصف شهيد كى تستعيد المساجد التي حولها الفرنسيون إلى كنائس ، وتستنقذ جيلاً من البشر سُرقت عقائده ومعالمه جهرة واغتيالاً ..

لقد اشترك «المعمرون» الفرنسيون ، ورجال الجيش ، والشرطة في قتل قريب من أربعين ألف مسلم في أعقاب الحرب العالمية الثانية في مدينة «سطيف». لأن الأهالي نادوا بالاستقلال ، وأملوا خيراً في مواثيق هيئة الأمم ثم جاء دور اليهود ليبيدوا شعباً وينشئوا على أنقاضه دولة لهم تحت سمع المؤسسات العالمية وبصرها وبين موافقتها ومعاونتها .

إن القرآن - في معرض التعجب والإنكار - يتساءل : **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الْضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضْلُّوا السَّبِيلَ﴾** والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولیاً وكفى بالله نصيراً<sup>(٢)</sup> فما اللوم الذي يراد توجيهه لخلفاء ردوا الوحش عن حمامهم ، أو كسرموا شوكتهم قبل أن يبدأوا العدوان ؟

### الدعوة قبل القتال

والجواب أنى أدرك طبائع المخاصمين للإسلام وأن تاريخهم لا يشرف على اختلاف الليل والنهار ، ومع ذلك فإننى أوثر التمسك بتعاليم دينى فى أسلوب البلاغ وطريقة الدعوة ! لن أسمى من الإطناب في الشرح والإفاضة في البيان والاحتياط على الوصول إلى القلب الإنساني من كل طريق ...

(١) سورة النمل ١٤ . (٢) سورة النساء ٤٤ ، ٤٥ .

أريد أن يكون علم أعدائي بالإسلام كعلمي أنا به ، مصدق قوله : ﴿فَإِنْ تُولُوا فَقُلْ آذِنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرِبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعِدُونَ﴾<sup>(۱)</sup> ، والناس تحجبهم عن الحق ظلمات شتى ، قد يعيشون ويموتون فيها ، ونحن - المسلمين - مكلفوون برفع المضيّح حتى يهتدى الحيارى ، وأخشى من مسألة الله لنا : لماذا عاشت أم دون أن تعرفني وتعرف كتابي ؟ ودون أن تبصر سبيلى وتتبع رسولي ؟؟ وقد اخترتكم لتقوموا بهذه الوظيفة ، وتنهضوا بأعبائها ؟؟

إن الدعوة تسبق القتال ، والدعوة ليست كلمة عابرة أو خدعة ظاهرة ، ثم تتشدد الحروب ، كلا ، إنها بيان وانتظار ومعاناة وأخذ ورد ، ونقاش شبه ، وبحث قضايا وتقديم عون ، وقطع الأعذار أمام الله والناس ...

قلت لنفسي : أين كانت أجهزة الدعوة لتعرض على النبوذين في الهند - وهم عشرات الملايين - حقوق الإنسان في أطواء كلمة التوحيد ؟ إن أولئك النبوذين كانوا يُعدُّون دفساً ، وقد أثرت نبيلة هندوكية أن يموت ابنها غرقاً ولا ينقذه أحد النبوذين ، لأن جسداً ابنها إذا مسه هذا النبود تلوث أو تنجرس ، والموت خير من حياته بعد هذا المس ... !

أين كان الدعاة ليقولوا للهندوك كلمة عمر : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ... » ؟ ول يقولوا للنبوذين : إن المؤمن لا ينجس ، وإن البشر كلهم إخوة كما قال محمد رسول العالمين ؟؟

إن تمجيد الإسلام في الهند وإن أرشد ثلث السكان أمر عجب ، وليس أعجب منه إلا توقفه في الصين ! وإذا كانت الاشتراكية الماركسية أو الماوية قد وحدت ألف مليون من البشر ، لأنها داوت تفاوت الطبقات وأزمات الجوع هناك ، فمن كان يعرف هؤلاء أن عمر بن عبد العزيز بحث في أرض الإسلام الواسعة عن فقير يأخذ الزكاة فلم يجد ، فاضطر إلى أن يشتري بها عبيداً ويحررهم وهذا من مصارف الزكاة !! إن الدعاة في هذه البيئات يعالجون أدواتها بما يحسّن الآلام ، ويرفع قدر الإنسان ويربط الناس بربهم ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خُوفٍ﴾<sup>(۲)</sup> وليس الدعوة وعظاً فارغاً ، وبلاغاً غامضاً ، ... ثم يكون القتال كما يتصور البعض من علماء الدين ...

. (۲) سورة قريش ۴ .

(۱) سورة الأنبياء ۱۰۹ .

وتلفتُ غربَ الدولة الإسلامية الكبيرة وشمالها ، فوقتنى الحرب المزمنة بين الروم والمسلمين أو بين الفرنجة والعرب ... لقد خرج الرومان من الشام بعد هزائمهم الساحقة أمام أصحاب محمد ﷺ ، تاركين وراءهم ذكريات سوداء بين النصارى الذين يخالفونهم في الفكر اللاهوتي ... وليس للوجود الروماني بالشام سناد من عقل أو نقل فما صلة دمشق والقدس ببيزنطة أو روما ؟ ومن الذي منع القوم حق استيطان هذه البلاد ومزاحمتها أهلها عليها ؟ الواقع أنها صفافة أوروبية قديمة جديدة ، لقد خرج الفرنسيون الصليبيون من الجزائر بعد مذابح طافحة بالوحشية ، وهم بعد ما خرجو منها لا يزالون يحنون إلى العودة إليها ، وكذلك كان الروم بعد ترك الشام فإن رغبتهم في العودة من حيث طردوا ظلت تراودهم ، وتجعل القتال موصولاً على حدود الدولتين الإسلامية والنصرانية ، وكان للمسلمين رباط دائم على تلك الحدود ، كما كانت الحرب بين كروفر في جزر البحر الأبيض كلها ...

هل كان هناك بدليل عن هذه المأساة الدائمة ؟رأى : نعم ! كان يمكن إقامة علاقات تجارية ، ثم علاقات ثقافية ، كما كان يمكن استقبال زوار القدس بترحاب له ما بعده ، لا سيما أننا ما وضعنا عائقاً أمام النصارى الذين يقيمون مراسم دينهم !

والحق أن أمتنا ما تنكس عن هذه الخطوة ! لكن رجال الدين والسياسة في أوروبا كانت تحركهم ضغائن لا تبرد نارها ، فهل كان الموقف الأوروبي من وراء عطل أجهزة الدعوة عندنا ؟ وعدم انسيا بها بين الكارهين ل الإسلام ، الشاتمين ل محمد و دينه بسفاهة منكرة ؟ الأمر يحتاج إلى تفصيل .

كانت الحكومة في دولة الخلافة مسؤولة عن الدعوة الإسلامية ، وكان رجالها يرون أنفسهم قوامين لله ، يحاربون المعصية ، ويزرعون الطاعات ، ويضربون المثل بذواتهم في العبادة الخالصة ، كان فيهم قوله تبارك اسمه : ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا حَاشِئِينَ﴾<sup>(١)</sup> ، والفارق كبير بين حكم يرى نفسه مسؤولاً عن الدين وحمايته ونشر تعاليمه وبين حكم يتسلل بالدين ل مدّ سلطانه ودعم أركانه .

إن الوسيلة قد ترك بعد بلوغ الهدف ، أو قد يستبدل بها غيرها إن سداً مسدلاً ، أما دولة الخلافة فقد كان الإسلام منهجها وهدفها ، وكان الخلفاء يرون أن شخصاً منهم آخر

(١) الأنبياء . ٩٠

ما يكترث به ، كانوا ربانين ينشدون الآخرة ، وكانوا علماء يعرفون كيف ينصرون دينهم في كل ميدان ..

والخلفاء الراشدون والأصحاب العظام من حولهم هم الذين جعلوا عالمية الإسلام حقيقة واقعة بعد ما كانت مقرراً نظرياً أو بشربيات تتلى في الكتاب الكريم ...

ولولا دسائس اليهود والمجوس التي نجحت في قتل عمر وعثمان وعلى لكان للأرض مستقبل آخر ، ولا تنتهي أجل الضلال في الدنيا ، ولكن الله قدراً آخر : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لِجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَّرُ الْوَلْوَنَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (١)

وقد بذل الأمويون والعباسيون والعثمانيون جهوداً كبيرة ليقولوا للناس : إنهم يقومون ببعض الخلافة الراسدة ، وإنه إذا تغيرت الوجوه فلن تتغير الأعمال .. أكانوا بينهم وبين أنفسهم صادقين ؟ ما أشك في أن فيهم من أخلص الله سريرته وأسلم له وجهه وجاهد في سبيله ما استطاع ! ولست دياناً للخلق أبت في مصايرهم عند ربهم ، وإنما أكتب ما أكتب التماس عبرة . وكيمما أحب الصحوة الإسلامية عثرات قديمة ، وهل يدرس التاريخ إلا من أجل ذلك ؟

إن موجة الفتح التي أسهم فيها التابعون ، مضت لستقرها في العهد الأموي ثم توقفت لأمر ما ، أما الاهتمام بمستقبل الدعوة في أرجاء العالم ، واكتشاف الأساليب المناسبة لإنجاجها ، فقد أخذ يتضاءل من الناحية الرسمية أو يأخذ طرقاً مسدودة .. !

ما السبب ؟ أشخاص الخلفاء أنفسهم ، والطريقة التي جاءوا بها إلى منصب الخلافة ! وسرعان ما تحول معظم نشاط أولئك الخلفاء إلى المحافظة على الحكم في ذراريهم ، وإلى مكافحة الفتوح التي يحدثها الناقمون والمعارضون .. ثم جاء العباسيون فقلدوا من سبقهم ، ولم لا ؟

ومتأمل في القيمة الذاتية للأشخاص الذين ولوا أعظم مناصب الدنيا يشعر بالحسنة ... إن بعض خلفاء بنى العباس لو بيعوا رقيقاً ما جاء أحدهم بشمن طائل . ولكن عنجهية العرب فرضتهم على الإسلام ليقودوه بضعة قرون ، فماذا حدث ؟ قبعوا في قصورهم ، واغتصبوا السلطة منهم أمراء وزراء من أجناس أخرى ، ولقي أغلبهم المصير على شر وجه .

(١) سورة هود ١١٨، ١١٩ .

## الدعاة يقومون بدور القيادة

لكن الدعوة - بطبيعة الإسلام السيالية - لم تتوقف ، لقد انطلق الفقهاء ، والربون ، والتجار إلى شرق آسيا وجنوبها ، وإلى شاطئ الأطلس الشرقي في إفريقيا وجنوب الصحراء الكبرى ، ولم يكن هناك فتّانون خطرون بعد انهزام الفرس والروم وما بقي من أمراء يصدّون عن سبيل الله سهل إقناعهم أو اتفاء شرهم ... .

ونشأ وضع عجيب عقب ذلك الانسياح الباهر فقد دخلت أقطار في دين الله لن تعرف عنها بغداد أو القسطنطينية شيئاً ، وماذا تعرف هذه أو تلك عن « الفلبين » « والملايو » « وأندونيسيا » ؟

إن أجهزة الدعوة المركزية مسلولة في هذه العواصم ! والغريب أن الصليبية العالمية اليقظى لم تقف ساكنة !

لقد انتهت الفرصة ، وأغارت على هؤلاء الموحدين ، وهي منذ قرون مشتبكة معهم في حرب حياة أو موت ، والعرب ومن حدا حذوهم من الترك لا يسدون لإخوانهم يداً ، ولا يدفعون عنهم كيداً ... .

بل إن المسلمين في القرن الرابع ، وفي ظل الخلافة العباسية المعتلة تحولوا إلى فرق تقاتل على السلطة وتتنازع على الإمارة ، يكيد بعضهم لبعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وما زالوا كذلك حتى جرفتهم الحملة الصليبية الأولى ، ثم غارات التتار التي أسقطت بغداد ، وقتلت خليفتها المسكين ... !!

لم تستفد الدعوة الإسلامية شيئاً يذكر خلال الحكم العباسى ، بل إن سوء التطبيق لتعاليم الإسلام نال من قدرتها على الانطلاق بعيد ... .

حكام يتهارون على الدنيا ويتقاولون على المنصب ، أجهزة الشورى صفر . العدالة الاجتماعية مضطربة ، قد تتكب بعض الأقطار بمجاعات فلا تجد الغوث ، العلم الدينى انحصر في فلسفات كلامية لا تمس القلوب ، أو مسائل فقهية ليس لها عند الله وزن ... .

ومعروف أن أجناساً شتى دخلت في دين الله من الهنود ، والفرس ، والروم ، والترك والكرد ، والزنوج ، ... إلخ . وكان المفروض أن تتصهر كلها في بوتقة الأخوة الإسلامية ، لكن ما دام العرب يশمخون بعرقهم فلماذا تسكت الأجناس الأخرى ؟

إن العالم - وراء الإسلام - لم ير في الطريقة التي تحكم دولة الخلافة ما

يعجب ، بل رأى ما ينفر ، وقد سقط العباسيون كما سقط من قبلهم الأمويون ليؤكدوا حقيقة علمية وتاريخية ثابتة ، وهى أن العرب لا يشُدُّ كيانهم إلا الدين ! فإذا خرجن عليه تيقظت فيهم جاهليتهم ، فهلكوا ...

وقد أعلنت هذه الحقيقة عن ثباتها واطرادها بسقوط الخلافة الأموية فى الأندلس واندحار الدوليات التى تحلفت عنها ! الداء هو الداء نَهَم مسحور إلى السلطة ، وتعارك وحشى على الإمارة ، وارتداء للدين على جسد أُجرب ، ومتاجرة بفقه الفروع لا تنطلى على الله ، لأن معاقد الدين وقواعد الأخلاق واهية ﴿أَتَوَاصُوْبِهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوْنَ﴾ (١) .

وبعد سقوط الخلافة العباسية بقرن تقريباً ، كان جنس آخر قد اعتنق الإسلام واعتزَّ به وأنشأ دولة تجاهد من أجله ، اتجهت صوب الأنضوص بقوة ، وقاتلت الروم ببسى ، وما زالت فى حرب مظفرة معهم حتى أخرجتهم عن آخرهم من آسيا وظلت تطاردهم فى شرق أوروبا بعد ما استولت على القسطنطينية ... تلك دولة الأتراك العثمانيين ، التى تسمى سلطانينا بخلفاء الإسلام !

ولست كارهاً للترك ، ولا ناسياً ما أسدوه للإسلام من أياد ، ولا متهمماً الشعب التركى بما هو منه براء ، فهو شعب مؤمن جياش العاطفة شجاع مقدم .

لكن الإسلام دين عربى الوحى ، كتابه عربى ونتهى عربية وثقافته الفقهية والخلقية عربية ، وقد رفض الترك أن يتعرّبوا فكيف يستطيعون مع هذا الرفض قيادة الرسالة والدعوة ؟ !

كان يمكن أن يظلوا كما يريدون ، ثم يستعينوا بالعلماء العرب لينشروا الإسلام ، وينشئوا أجيالاً جديدة عليه ، بيد أنهم لم يفعلوا ...

ولو أرادوا لاستعانوا بمصر وفيها الأزهر ، وجعلوا من القدرة العلمية عند المصريين وغيرهم ما يعزز فتوحهم ، ويؤسس للإسلام مجتمعات واعية هادية ...

إنهم لسوء الحظ لم يفعلوا ، بل ولـى الحكم السلطان سليم الأول ، وكان رجلاً نزقاً سفاحاً مضطرب المزاج ، فأغار على مصر وخرب مستقبلها بضعة قرون ...

وبديه أن يعجز الأتراك عن نشر الدعوة خارج أرض الإسلام ، بل إنهم دخل أرضه

(١) سورة النازيات ٥٣ .

لم يكن لهم كبير اهتمام بدور العلم ، وكانت النتيجة الكثيبة أن رانت على الأمة الإسلامية كلها ظلمات بعضها فوق بعض !

فلما اجتاحتها الاستعمار العالمي ، الصليبي ثم الشيوعي ، كانت الأمة كالغريق الذى يحاول النجاة من الطوفان ، والشاطئ أمامه بعيد بعيد ... .

ونسأل نحن - بعد هذه النظرة العاجلة الشاملة - هل استفاد العرب من الماضي وقرروا إخلاص العمل للإسلام ، والبعد عن طباعهم القديمة ؟ وترك الاعتزاز بالنسبة ، والتعلق بالسلطان ، والشره فى حب الدنيا .. كلا .. إن طنين الضلال القديم ملأ الآذان مرة أخرى ، وها نحن أولاء نسمع عن بعث عربى وقومية عربية !!

كل ما هنالك من فرق ، أن العرب الأول كانوا يرفعون راية الإسلام ، أماعرب هذه الأيام العجاف فهم ينكرون الإسلام أو يتنكرون له ! إن طنينهم يشبه طنين الذباب فى أماكن القمامه ومجامع الأقذار .. والأمر يحتاج إلى مقادير كبيرة من المطهرات حتى تنجو أمتنا من هذا البلاء ... .

\* \* \*

## قصور الحكم وأثره في الاضطراب العلمي

كانت دولة الخلافة الراشدة بادية الحرص على سلامة المعرفة التي تصل إلى الجماهير ، وقد رأينا على بن أبي طالب يرقب المساجد ، ويتسمع إلى ما يلقى بها من دروس ، وقد أمر بطرد أعداد من القصاصين المتحدثين إلى العامة ، واستبقى الحسن البصري وحده .. ! إن الميدان الديني مرتع خصب للمشعوذين والخرافيين ، ولا يجوز أن يستخفى أولئك في لباس الوعظ والفقه ليفسدوا الأفكار ، وينحرفو بالناشرة .

وقد كان عمر يقتضاها إلى حد الغيرة نحو كل ما يمس العقيدة والسلوك ، وكان يوصى أمراء الجيوش بجمع الناس على كتاب الله ، والإقلال من الأحاديث النبوية . والسبب في ذلك أمران : أولهما خوفه من رواية الواهيات والترهات . والآخر خوفه من عدم فهم الحديث على وجهه ، واختلاف الأنوار مع اختلاف الروايات .

وقد رأيت شباباً غضباً يتلقى بعض الأحاديث ، وهو دون مستواها ، ويشغل بها خلافات مخوفة العقبي ، وقد يكون الجيش مكلفاً بدخول مدينة ، أو بلوغ هدف فإذا هؤلاء يحدثون فتنة حول قصر الشوب ، أو الصلاة في النعل ، أو الشرب عن قيام فيصاب الإسلام من غبائهم ..

لكن الأمر تغير على نحو ما بعد انتهاء الخلافة الراشدة ، واستيلاء خلفاء قاصرين على دفة الحكم ..

وليس يعنيانا الآن التغيير الطفيف الذي وقع في العهد الأموي ، ووجد للفور من يقوم بحق الله في إصلاحه ، وإنما يعنيانا ما وقع في أيام الخلافة العباسية بعد أن استقرت الأمور - كما يقال - وبدأ عهد الحضارة .. ! لقد تدبّرت قضية الترجمة التي نقلت إلى لغتنا العربية تراث أم أخرى أهمها اليونان !

أكنا - نحن المسلمين - فقراء إلى هذه المعارف المنقوله ؟

وابادر إلى القول بأنني منهوم إلى الاطلاع على كل ما لدى الآخرين من علم ، وأنني لا أرخص حكمة جاءت من عدو ! ولا أزهد في حصاد الذكاء البشري مهما كان موطنـه .. !  
بيد أن ذلك لا يعني تأخير ما لدى ، واستقبال الجديد بحفاوة تنسى الأصل ..

إنتى أعرف الله عن اتصال ، فلدى نبوة وبين يدى وحى !  
وغيرى يعرف الله عن استدلال ، لأنه محروم من العلاقة التي ظفرت بها ،  
واستدلاله تارة يقوم ، وتارة يكتبوا ، فكيف أزاحم القديم الأصيل ، بدخول خفيف  
الوزن ؟

يرى أرسطو أن الله خلق العالم ، وبعد أن خلقه تركه ، وانصرف عنه وانقطع تدبره  
له ! فهو لا يدرى عنه شيئا .

هل هذا اللغو ينقل ويوضع بإزاء قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ  
أَن تَرُوْلَا وَلَكِن زَالَتَا إِنْ أَمْسِكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾<sup>(1)</sup>

لقد استغربت من شوقي - رحمه الله - أن يستدل على عظمة «التوحيد» الذى  
جاء به محمد عليه الصلاة والسلام بأنه سبق أن نادى به الفلاسفة اليونان !!  
بنيت على التوحيد وهو حقيقة      نادى بها سقراط والحكماء  
إن سبق هؤلاء ليس مفخرة ! وتأييدهم أو رفضهم لا يقدم ولا يؤخر .

لقد كان المطلوب من الخلفاء العباسيين أن يترجموا الإسلام للناس فى كل قطر لا  
أن يترجموا للمسلمين أفكار وخيالات الأم الأخرى !

إن عالمية الرسالة الخاتمة تفرض على خلفاء محمد - لو كانوا صادقين فى هذه  
الخلافة - أن يترجموا حقائق الدين وأحكامه السياسية والاجتماعية ، ومبادئه  
الروحية والخلقية ، وأن يضعوا جوائز سنوية لمن يقوم بهذا الجهد ، وينذهب به فى آفاق  
الأرض ليشرح صدورا وينير عقولا ... لكن هؤلاء الخلفاء الورثة لم يكونوا على  
مستوى المناصب التى ختلوها فكان ما كان ...

وندع الحديث فى مسار هذه الترجمة على فكرنا الإسلامي النقى ، وننظر فى أمر  
آخر ، لا نزال نضار منه إلى اليوم ...

الإسلام منهاج كامل يوضح العلاقات الآتية :

• علاقة المؤمن بربه على أساس من التوحيد المطلق والسمع والطاعة والاستعداد  
للقاء - سبحانه - بتسام وطيبة .

(1) سورة فاطر ٤١ .

- علاقة المسلم بالدولة التي تحكمه ، كيف يختار الخليفة ؟ كيف تتم الشورى ؟ ما نظام النصيحة والتوصى بالحق والتعاون على البر والتقوى ؟
- علاقة المسلم بالمجتمع - أول خلية فيه الأسرة - كيف يتم بناؤها وتوسيعها واجباتها ؟  
كيف يتعامل المسلم مع الآل والأقارب والجيران ، وسائل الناس ؟ ما نظام الملابس  
وحدود الاختلاط ؟ كيف نعتاد المسجد ؟ كيف تتلقى الدروس في شتى المراحل ؟
- علاقة المسلم بالبيئة والحياة الدنيا : كيف تقوم بأعباء المعيش المتنوعة ؟ كيف  
توزع مواهب الناس على مراقب الحياة ؟ كيف نملك الحياة لنسخرها في إنجاح رسالتنا ؟  
ما هي الواجبات الموقعة وغير الموقعة التي نجاهد في سبيلها ... ؟  
ومن السهل اقتباس الآيات والأحاديث التي تشرح ذلك كلها ، وتعرف المسلم أين  
يضع قدمه ، وأين يولى وجهه ؟؟

وتقديم هذه الحقائق في خلاصات علمية مسئولة كل عامل للإسلام في أي ميدان ثقافي أو سياسي .. ولا يجوز أن يمتدّ عنصر على حساب عناصر أخرى ، فإن النسب في عناصر الغذاء المعنى كالنسبة في عناصر الغذاء المادي ، لا بد من رعايتها .. كما أن إهمال عنصر ما ، أو استبعاده مرفوض ، فإن شعب الإيمان كالعقاقير التي يتكون منه الدواء لا يتم الشفاء إلا بتجميعها كلها ..

والذى حدث في تاريخ ثقافتنا يحتاج إلى نظر ومراجعة ، حتى لا تطول شكاتنا من خلل ملحوظ أو نقص قائم .

### القصور في المنهج ... خطر داهم

إن الاستبحار العلمي مضى في طريقه قبل الوفاء بصورة النهاج الكامل الذي أشرنا إليه آنفا ، وقبل كتابة خلاصات وجيزة له ، للتعليم والدعوة في الداخل والخارج .  
ونشأ عن ذلك أنك ترى دارسا لعلم الكلام ، أو لعلم الفقه ، متمكنا من قضائيا العلمين المهمين ، ولكنه لا يحسن إلا الجدل وتشقيق الفروع ! ، أما استحضار الخشوع ، واستشعار جلال الله فإن نصيبه منهم قليل ، ذلك لأنه لم يلق التربية النفسية المكافئة لما نال من معارف أخرى ..

ونشأ عن ذلك أن ترى امرءاً ماهراً في الأحاديث وقبولها وردّها ، بيد أن بصره بالقرآن كليل ، وخبرته بما فيه من توجيه وحكمة لا تسرّ ، وقد يكون الأمر بالعكس

فترى مفسراً يحسن إعراب الجمل ، وتقرير بعض الأحكام مع غفلة شديدة عما صحّ من سنن في القضايا التي يعالجها ..

وقد ترى مطلاعاً على جملة من علوم الدين ، بيد أن إدراكه للبيئة من حوله قاصر ، وإدراكه للكون والحياة أشدّ قصوراً ، ومن ثم يصدر أحكاماً وفتاوی تصيب الدين في مقاتله .

وأعرف أن الحكم الفردي جمّد عدة فرائض سياسية ، ومالية ، وسيّر الفقه بعيداً عما يمسُّ استقراره ، كما أعرف أن بعض البيئات غلبت تقاليدها على تعاليم الدين ، كما حدث في بعض الشئون النسائية .. لكن الإسلام ظل وسوف يظل مضبوط المصادر نقى المنابع ، وأن أصحاب الفطر السليمة ، والأراء النزيهة قادرون على العودة إليه ، والاستمداد منه دون عائق .

وأنفي بقوّة كل ظن أنني أنتقص رجالنا ، فإنني شديد الإعجاب والولاء لأئمة الفقه ، والتفسير ، والحديث ، وقد تابعت وتدبرت الكثير مما كتب في علوم الكلام والتصوف<sup>(١)</sup> والأخلاق ، ونفعني الله بما شاء من تراث السلف والخلف ، غير أنني وجدت الحقائق هنا وهناك ، فلم ألزم مدرسة واحدة ، ولم أر لأحد عصمة .

وأؤكد ما قلته : إن القراءات غير المتوازنة تخلق فكراً مشوشًا ، وإن الإيغال في دراسة ما دون قاعدة مشتركة من علوم أخرى لا يعطي ثقافة سليمة .

وقد بلوت شيوخاً يتكلمون في الإسلام وقلوبهم وجلة من التعرض لسياسة الحكم والمال ، بل قرروا - من غير أيمان مغلوظة - ألا يمسؤوا هذه الناحية ..

وآخرين لا يعرفون ذرة من ضغط التقاليد البشرية على التعاليم السماوية ، فهم ينطلقون دعاء إلى الإسلام ، والحقيقة المرأة أنهم يدعون إلى معالم مجتمعهم البالى ، ومواريثهم الهشة ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ..

كما بلوت شباباً غرورهم أكبر من تفكيرهم ، يستمعون إلى أولئك الشيوخ دون مراجعة .

وشعرت بانكشاف العجز العلمي عند هؤلاء جميعاً عندما زار الأستاذ «جارودي» القاهرة ودول الخليج ، وقابل نفراً من علماء الدين التقليديين .. إن الرجل اعتنق

---

(١) المقصود التصوف المجاهد العامل النقيّ من البدع والشوائب ، أي الذي لا يزيد عن كونه مواجهة للنفس وجهاداً في سبيل الله .

الإسلام بعد ما أحس إفلاس الحضارة الغربية ، واستوحش من خواصها الروحى ، وشروعها الفكرى ، وبعد ما درس الإسلام دراسة خبير بالأديان والفلسفات ، عارف بالحضارات البشرية وأسرار ازدهارها وانهيارها ..

و قبل أن أذكر ما لقى فى عالمنا العربى أسوق أجزاء من محاضرة تنبئ عن فكره وأمله ، ومعرفته وإخلاصه ، ألقاها تحت عنوان «الإسلام وأزمة الغرب» .

● قال : «لن أتحدث هنا عن الإسلام بصفة عامة ، ولا حتى إسهامه - المحدود - في الحضارة الإنسانية ، وإنما أتحدث عن الإمكانيات الجديدة لتوسيعه وانتشاره اليوم في عالمنا العربي ، وعن الأسباب - المتصلة بروح العقيدة الإسلامية ذاتها - التي أتاحت مثل هذه الإمكانيات .

إن الإسلام عند مولده أنقذ العالم من الانحطاط الشامل ، فقد كانت الإمبراطوريات التي تسود العالم مفككة منحلة ، سواء الفارسية أو الرومانية ، أو أرجاء الهند ، أو الشمال الأفريقي أو مالك «الفيزيقوط» باسبانيا ... ثم جاء القرآن معلنا بقوة علو الخالق ومجده الذي تفرد به ، وبيانا على هذه الوحدانية نوعا جديدا من البشرية المتساوية في عبوديتها لله سبحانه .

وبذلك منح الألوف المؤلفة من الناس ، وعيها بدئ الكمال الذي يحرزونه عندما يعرفون ربهم ويرتبطون به ، إن «الربانية» هي الشرف الحقيقي للإنسان ، والبعد الذي يجتازه ليؤدي رسالته في الحياة ...

والإسلام اليوم قادر على الإسهام بهذا العنصر الغالى لتحسين الإنسانية وحياة مستقبلها ، وحمايتها من المترافق الذى يوشك أن يبتلعها ..

إن المدينة الحديثة قضت على التسامى الروحى ، وأيقظت الآثرة الحيوانية ، وأقرت نطا من الحياة يمتاز بجنون التنمية وزيادة الإنتاج ثم تسخير هذه النتائج الكبيرة لخدمة أغراض خسيسة ..

وماذا نرى بعد انفراد الحضارة الغربية بقيادة العالم ، ومرور خمسة قرون على هيمتها المطلقة ؟ إننا لنخوض الجواب في أرقام ثلاثة :

بعد تخصيص ٦٠٠ مليار دولار سنة ١٩٨٢ للإنفاق على التسلح أصبح كل ساكن من سكان الأرض تحت تهديد ما يعادل أربعة أطنان من المتفجرات ، وفي

الوقت نفسه تم توزيع الموارد والثروات - وقد تكاثرت جدا بفضل التقدم العلمي - على نحو مثير للعجب ، ففي هذه السنة ١٩٨٢ ، هلك خمسون مليون نسمة في العالم الثالث بسبب المجاعة وسوء التغذية .

أما صانعو الحضارة فهم متاخمون ..

ومن الصعب أن نسمّى تقدماً ذلك المسار التاريخي الذي سلكته الحضارة الغربية . إن كدح البشر منذ ظهروا على وجه الأرض مُهدّد بالتوقف ، بل لقد أصبح ميسوراً لقلة من الناس أوتّيت تفوقاً صناعياً رهيباً أن تمحو كل أثر للحياة ..

هناك رغبة عميماء في زيادة الإنتاج ، إنتاج أي شيء دون تساؤل : من؟ ولماذا؟ ولعل الواقف وراء دولاب الصناعة لم يرفع نظره إلى السماء يوماً ، أو يتذكر ربه في لحظة رشد !

وعلى الصعيد السياسي قامت علاقات داخلية وخارجية تتسم بالعنف ، ومحور الصراع فيها مأرب الأفراد والطبقات والأمم ، ونزوع عام إلى الهيمنة وفرض الذات ... أما الصعيد الثقافي فيمتاز بفقدان المعنى والغاية ، قامت «تقنية»<sup>(١)</sup> غايتها التقنية لذاتها وعلم يبحث في العلم لذاته ، وفن يخدم الفن وحده ، حياة تتحرك دون هدف ..

وفي مجال العقيدة اختفى مفهوم التسامي ، والاستعلاء على الغرائز الدنيا ، الكلُّ أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، ليس للإنسانية صبغة طهور ، ولا اتجاه إلى الله . الربانية أسطورة من آثار ماضٍ سحيق ، ولمن شاء أن يمضي هائماً على وجهه غير مرتبط بنظام نفسي عتيق !

● يقول<sup>(٢)</sup> الأستاذ رجاء جارودي : «إن الثقافة المدعية المغروبة التي تعتمد عليها هذه الحضارة ترى حيناً حصر الحياة في «الضرورة والصدفة» كما يزعم أحد علماء الأحياء ، وترى حيناً جعلها عاطفة جوفاء لا طائل تحتها - كما كتب أحد الفلاسفة - وترى حيناً نسبتها إلى اللامعقول كما وصف أحد الروائيين ، ولعل الإسفاف بلغ

(١) القدرة الصناعية المتفوقة ، والكلمات شائعة في البلاد العربية ، ويمكن تعريفها .

(٢) تركنا الترجمة الحرافية لعدم وفائها بالمعنى ، وتصرفاً بما يوضح غرض المخابر

منتهاء فيما أفضت الصحف رديعاً من الزمن عن موت الآلة ! وموت الإنسان وموت كل شيء كما يردد دعاء العدم والمتبنؤون به ... !!

إننا لا نعرف حضارة أغفلت إغفالاً تاماً : التساؤل عن معنى الحياة والموت مثلما فعلت الحضارة الأوروبية الحالية .

والثقافة المادية التي تحضنها تقوم على أربعة مبادئ زجّت بنا - بعد خمسة قرون مجموعة - إلى طريق مسدود ، وإذا استمررنا فيه فسينتحر العالم بأسره ! ..

إن هذه المبادئ الأربع هي :

(١) الفصل بين العلم والحكمة أي الفصل بين الوسائل والغايات يعني أن هذه الحياة الدنيا غاية في ذاتها ، فليس وراءها حياة أخرى .

(٢) إخضاع كل حقيقة لفهمها الخاص ومقدارها المادي مع استبعاد كل إثارة للحب والإيمان والمعانى الروحية .

(٣) الفردية أو الأنانية التي تجعل امرأة أو جماعة ما المحور والمقياس لكل شيء ، وترى النظام الموضوع ليس إلا توازنا مؤقتا بين الأطامع المتنافسة .

(٤) إنكار التسامي ، أو إنكار القدرة على الإفلات من هذه المثالاث المفروضة والاستكانة لتنمية حتمية تقتصر على «الكم» وتستبعد الخلق والحرية والأمل .

● يقول «رجاء جارودى» : «إن الثقافة الأوروبية المعاصرة تبثق من أصل مزدوج ، من التراث اليونانى الرومانى ، واليهودى المسيحى ، وقد أغفلت عن عمد التراث العربى الإسلامى ..

والأوربيون يرمون هذا التراث بنقاصتين :

(أ) أنه مجرد ناقل لثقافات وأديان قديمة ، وربما ضم إلى النقل بعض التفسير والتعليق .. ولكنه ضم إلى ذلك إنكاره للمعتقد المسيحى ورفض قضية التثليث ..

(ب) يمثل هذا التراث فترة سلبية منعزلة ، ويمكن للمؤرخين أن يدرسوها ليحيطوا بها علمًا ! إذا شاءوا .

ومن خلال هذا المنظار الداكن الجائر وصف الأوروبيون الإسلام ، بأنه لا يمكن أن

يأتى بجديد ، وأنه لا يحتوى على شيء حيوى ، إنه جزء من تاريخ ماضى لا جدوى من التأمل فيه أو ارتقاب خير منه ...

● يقول المعاصر : « إن هذا الاتهام المزدوج يجب أن يحارب ، وأن يكشف زيفه ، لأنه يمنعنا من فهم المعاصر وبناء المستقبل » .

و قبل أن نثبت ردود الأستاذ جارودى على هذه التهم ، نذكر طرقاً من المشاعر السائنة التي يكنها أحفاد الرومان والفرنجية عموماً ضد الإسلام وأمته ...

إن الإسلام هو الذي قلص نفوذهم وطارد فلولهم شرق البحر الأبيض وجنوبه ، وقد مرّ حينَ من الدهر كاد البحر الأبيض يكون فيه بحيرة إسلامية .

أليس جميلاً أن يكون باني الجامع الأزهر رجلاً من صقلية<sup>(١)</sup>؟ بعد ما فتحها فقيه مالكي مشهور !

لقد ظل الرومان بضعة قرون ملوك هذا البحر وحكام شواطئه ، ما أخرجهم منها إلا الإسلام ، وما ردّ الحريات إلى شعوبه المأسورة إلا دين الله بعد ما حمله العرب .

فلا غرو إذا تناهى حقد الأوربيين عموماً على دين غسل الأرض من جبروتهم ، وسوّاهم بغيرهم من عباد الله ! وقد شرعوا يتلمسون العيوب للإسلام ويفترون الأكاذيب ليشفوا صدورهم .

قالوا : إن القرآن مأخذ من الكتاب المقدس ! وقال أولو الألباب : كيف يؤخذ التوحيد من التثليث ؟ والتنيز من التجسيد ؟ وقالوا : الفقه الإسلامي مأخذ من الفقه الروماني !

وقال أولو الألباب : إن تشريعها يحث على إنتظار الميسر والتجاوز عن الدين لا يؤخذ من تشريع يقضى باسترافق الميسر وقد يأمر بقتله ! وشتان بين المسئولة في الإسلام والمسئولية عند الرومان ..

ذلك من ناحية الكيف ، أما من ناحية المساحة الاجتماعية فالقول بأن الفقه الإسلامي مستمد من الفقه الروماني كالقول بأن نهر النيل ينبع من بحر حفرها جندي رومانى فى بلاد النوبة ليستقى منها هو وجوداته .

إن البواعث على إهانة الإسلام وتصغير رسالته وتحقيق أمته وإنكار ما تركته في الدنيا من دوى ، وما خلفته في العالم من رقى لا سناد لها إلا كره أعمى .

(١) الذي بنى الأزهر جوهر الصقلى قائد جيوش المعتزلين الله الفاطمى .

قال الأستاذ رجاء جارودى : فى رده على الاتهامات السابقة التى أخنا إليها : «قبل كل شيء ننفى الزعم بأن الفكر الإسلامى ، مجرد مترجم ، أو ناقل عن الفكر اليونانى ، إن هذا قول لا أساس له من الصحة :

ا - فالرياضيات اليونانية تعتمد على مفهوم النهايى فى حين أن الرياضيات العربية تعتمد على مفهوم اللانهايى .

ب - كان المنطق اليونانى نظريا فى حين أن العلم العربى تجربى أساسا .

ج - كانت الهندسة المعمارية اليونانية «استاتيكية» تعتمد على الخط المستقيم أما هندسة المساجد فإنها على عكس المعبد اليونانى «سمفونية» من المنحنيات بأقواسها وقبابها .

د - كانت الفلسفة اليونانية من «برمنيدس» إلى «أرسطو» فلسفة وجود ، أما الفلسفة العربية فهى فلسفة الوجود والفعل ، ثم هى تعتمد على نبوة أى على الوحي فلها مصدر علمى آخر غير المصادر المادية للمعرفة ، التى لا يعرف اليونانيون غيرها .

ه - المأساة اليونانية - بما فيها من شذوذ وعُقد - لا يمكن تصورها فى النظرة الإسلامية للحياة ، بل إن الأدب العربى يستنكر التصور اليونانى للحياة كما وكيفا .

ليس صحيحاً أن العلم العربى علم بدائى إذا قيس بالعلم المعاصر ، إن العلم العربى على عكس مفهومنا الوضعي لا يفصل بين العلم والحكمة أى أنه لا يُغفل أبداً المعنى والغاية ! إن القرآن ترك آثاراً عميقاً في الفكر الإنساني تجعل المؤمن يرى آيات الله في كل شيء ، يجعله يبصر أمجاد الألوهية في آفاق الكون ، وال السنن العامة التي تحكمه ، ومن ثم فهو يحتبس عند الظواهر الملحوظة ، بل يرى في كل شيء «إشارة ورمزاً» يعني إلى ربه بداعه !!

فآيات الله في صحف الكون تتلاقى مع آيات الله في صحائف الوحي تلاقياً يجعل النظرة إلى الكون أسمى ، وهذا العقل المؤمن لا يعجز عن تحليل الروابط التي تصل الأشياء بعضها ببعض ، والتي تقود إلى القوانين العلمية الشائعة في الوجود ، وإنما يتميز العلم المتدلين بأنه يضفي على هذه القوانين معنى أشرف . » .

ومن ثم يقول «رجاء جارودى» : «إنها قوانين دنيوية ، بالنظر إلى العلاقات التي تسودها ! بيد أنها دينية رفيعة القدر عندما نلحظ صلتها بالخالق ..

إن الغرب نسى الجانب الإلهى في دراسته للكون والحياة ، فماذا كسب من مبدأ «العلم للعلم» ؟ لاشيء ! أمسى التطور الكمى للعلم والحضارة الصناعية هدفاً مقصوداً

لذاته ، يوشك أن يتحول إلى بلاء على أصحابه ، والخاسر في هذا العلم المتمرد هو الإنسان في كل مكان ! »

ويخصى المحاضر العظيم فيقول : «إن نهضة الغرب لم تبدأ في إيطاليا مع إحياء الثقافة اليونانية الرومانية ! بل بدأت في إسبانيا مع إشعاع العلوم والثقافة العربية الإسلامية ! لكن هذه النهضة الغربية لم تأخذ من العلوم العربية الإسلامية سوى منهاجها التجربى و «تقنياتها» و تركت جانبا الإيمان الذى يوجهها نحو الله ويستحرها خدمة البشر . . . ! »

ونقتطف هذا الجزء من محاضرة جارودى - ولما نقتبس ثلثها - لتسمع هذه العبارات : «إننا نشهد اليوم ما كنا نشهده على عهد النبوة ، فعندما بدأ الرسول دعوته ، كانت هناك دولتان عظيمتان ، نال منها التدهور ، تتواجهان في عداوة حادة ، هما الإمبراطورية البيزنطية ، والإمبراطورية الساسانية ، واليوم نشهد دولتين كبيرتين تتنازعان على تقسيم العالم ، وتمثل كل منهما مذهبا يخيل إلينا أنه يعارض الآخر ! والحقيقة أنها نتاج واحد للفلسفة المادية الفرعونية المستكيرة ، وأنهما يؤديان إلى ذات الطريق المسدود ، ومنتهيابا حتما إلى إفلاس البشرية .

ويقول : في هذه الظروف المتميزة بأزمة الغايات أو بانعدام هدف ديني ناضج يربط الإنسانية بالله على نحو مكتمل ، يمكن للإسلام أن يقدم للعالم الشيء الذي يفتقر إليه ، ويقاد بهلك ، لأنه لا يجده ، يمكن للإسلام أن يقدم التوحيد ، يقدم للحياة معناها النضير ، يقدم النور والجمال لعالم يوشك أن يحتويه ليل مظلم بالغ الدمامات . . . ثم يقول جارودى للمسلمين : «إن الوفاء للأجداد لا يتمثل في الحفاظ على رفاتهم ، ولكنه في العمل على تبليغ الشعلة . . . !!!

رذهب الرجل ليلقى علماء الخليج - و كنت يومئذ في دولة قطر<sup>(1)</sup> - وتبعه أنباءه ، وهو بين حل وترحال ، وسمعت أحد الناس يقول : إنهم وصفوه بأنه صوفيّ مبتدع . . ! (مساكين لا يدررون شيئا . . !!!) .

ولوى الرجل وجهه شطر القاهرة ، وقلت في نفسي : لن يلقى هناك محمد عبده ،

(1) كان ذلك مابين عامي ٨٢ ، ٨٣ تقريباً .



لن يلقى هناك حسن البناء ، من سيلقى الرجل هناك ؟ بقايا سدنة «مجمع الأديان»  
الذى أوعزت به الصليبية العالمية ثم دفن فى وادى الراحة بأرض سيناء ؟  
وأصدر غلام شيوخى كتابا عن ردة «جارودى» فقلت : التقى الدهاء من الكفار  
بالأغبياء من المؤمنين على مهاجمة رجل عظيم ...  
إن مأساة العلم الدينى لابد من شرحها ، فالقدر المطلوب لتكوين عقل مؤمن  
وضمير طهور من مواريثنا التقليدية لم نحسن تحديده بل لم نحاول تحديده ...  
والاستبحار في المعرفة الدينية هو عند الكثيرين استكثار من عملة فقدت قيمتها ،  
لأنها حوار مع الموتى مضت عليه قرون !!

\* \* \*

## العلم المغشوش يهز الأمة ويخدم الاستعمار

الصحوة الإسلامية المعاصرة مهددة من أعداء كثيرين ، والغريب أن أخطر خصومها نوع من الفكر الدينى يلبس ثوب السلفية ، وهو أبعد الناس عن السلف إنها ادعاء السلفية وليس السلفية الصحيحة !!

إن حب السلف دين وكرههم نفاق ، إنهم دعائم حضارتنا ، ومعالم رسالتنا ، من أجل ذلك يجب أن نحسن التأسي بهم ، وأن ندفع عنهم كل ما يؤذى سمعتهم .  
كنت يوماً أتحدث في موضوع غير ذي بال ، وفي المجلس رجل موصوف بالسلفية ، وجرت على لسانى كلمة موهمة لم أقصد إلى شيء بها ! وتلتفت فإذا الرجل يحسب في نفسه مسار فكري ، ويقدر أنى سأتورط في كذا وكذا ، وكثير عن أبياته واستعد للفتك !! غير أن الحديث انعرج إلى ناحية أخرى ، وشعرت بأن الرجل آسف لأنى أفلت منه .

قلت له : فلان ! قال : ما تريد ؟ قلت :رأيتكم متحفزا للنزال ، ثم كفى الله المؤمنين القتال .... قال : نعم ، حسبتكم ستقول ما لا أوفق عليه ...

قلت : إنكم تربصون بالخطأ ، لتأكلوا صاحبه ، فإذا فاتكم شعرتم بالحزن ، ليست هذه يا صاحبى خلاائق المؤمنين ! إنكم تجمعون جملة من صفات العناد والتحدي والحدق وتلمئس العيب للبراء ، وهذا كله مرفوض في ديننا ..

قال : نحن ندافع عن السنن ونحارب المحدثات والناس تأبى إلا الابتداع . وما يرموتنا به باطل ...

قلت : ليت الأمر يكون كذلك ، إنكم تهاجمون المذاهب الفقهية ، وتخدشون أقدار الأئمة ، وتتركون انقسامات عميقة بين الناس باسم السلفية ، والعلم الصحيح لا يأخذ هذا المنهج ..

قال : نحن نرفض التقليد المذهبى ، ونعلم الناس الأخذ المباشر من الكتاب والسنة أتأبى أنت ذلك ؟

قلت : لا يأبى مسلم الارتباط بكتاب ربه وسنة نبيه ، وتصوركم أن الفقه المذهبى يستقى من نوع آخر غير الكتاب والسنة غير صحيح .. ومن الممكن للعلماء الراسخين أن يناقشوا بعض القضايا ، ويتعرفوا ما جاء فيها من آثار ، ويستنبتوا ما يطمئنون إليه من أحكام ، وذلك كله فى إطار من الإخاء والحب وإيثار الحق على الخلق ..

والفقهاء الأربع الكبار ، نماذج رفيعة لاحترام الكتاب والسنة ، ولا يلام مسلم تبع واحداً منهم ، كما لا تلامون أنتم فى اتباع الشوکانى أو الألبانى أو الصنعانى ... إلخ .

قال : ذاك ما نقول ! قلت له : لا ، إنكم ترون رأيكم - الذى تابعتم فيه أحد الناس - هو الحق وحده ، ثم تشترون هجوماً على من خالقه بوصفه خارجاً على السنة !! كأن السنة وقف عليكم أنتم لا غير !

أحب أن تعلموا أن الاجتهاد الفقهي خطأ وصوابه مأجور ، وأن الأمر لا يتحمل عداوة وفرقة ! ولو سلمنا أن ما لديكم هو الصواب ، فمخالفكم ما حرم ثواب الله ! فلماذا تريدون إحراجه ، وإخراجه من دائرة السلف ، لتبقى حكراً عليكم ؟

الرأى عندي أن المأساة (خُلُقِيَّة) ، لا علمية ، وأولى بكم أن تتواضعوا لله وتصلحوا نيتكم معه ، وتطامنوا لإخوانكم المؤمنين ، وتحسنوا الظن بهم ..

إذا افتنتتم برأىي فمن حق غيركم أن يقتنع بضدّه ، ولا مكان لحرب ، ولا ضرب ، والخلاف الفقهي لا حرج منه ، أما الإثم ففي التعصب المذهبى الضيق ! والعالم الإسلامي رحب ، والمذهب الذى يضيق به قطر يتسع له آخر ، والذى ينبو عنه عصر تتسع له عصور أخرى ..

إن زعيم السلفية الأسبق فى مصر الشيخ حامد الفقى حلف بالله أن أبا حنيفة كافر ، ولا يزال رجال من سمعوا اليمين الفاجرة أحياء ، وقد نددت أنا فى كتابلى بمحاضرة <sup>الْقِيَّتْ</sup> فى حى الزيتون بالقاهرة تحت عنوان «أبو حامد الغزلى الكافر» والمكان الذى قيلت فيه هو مقر السلفية !! والطلبة السلفيون هنا - فى جامعة الأمير عبد القادر بالجزائر - يقولون عن مالك بن أنس : إنه يفضل عمل أهل المدينة على حدث رسول الله ، قلت لهم : هذا كذب ، إن مالكا <sup>رضي الله عنه</sup> يرى عمل أهل المدينة أدل على سنة رسول الله من حدث واحد قد يحفظ أو ينسى ، قد يخطئ أو يصيب !! .

هذا التفكير المريض المتحامل لا نتيجة له ، إلا ترث الأمة المتخنة بالجراح ، والزعم  
بأنه سلفى لون من الدجل والجراءة . . .

وقد لاحظت ثلث ثمار مُرّة لهذا العلم المغشوش ، الأولى أن بعض الطلاب الذين  
لا يحسنون إعراب جملة يقولون عن الأئمة المتبعين : هم رجال ونحن رجال !

قلت : إن الشعب الإنكليزي لا يتناول رئيسته « تاتشر »<sup>(١)</sup> بهذا الأسلوب السمج !  
ليت شعري أين هذا السلوك من قول رسولنا ﷺ « ليس منا من لم يوقر كبارنا  
ويرحم صغارنا ويعرف لعلنا حقه » !!

الثانية أن نفرًا من العمال وال فلاحين فرّطوا في أعمالهم الحرفية ، أو الفنية ،  
مكتفين في إثبات تدينهم بثوب قصير ، ولحية مشوشة ، وحمل عصا حينا ،  
أو ارتداء عمامة ذات ذنب عندما تكون « المشيخة » قد ثبتت لصاحبها . . . !

أما الملاحظة الثالثة ، وخطرها شديد فإن عمال روسيا وأمريكا أيقاظ في محاربة  
الإسلام ، مهرة في إطفاء صحوته الجديدة ! وهم يجهدون في إبراز الجماعات المتطرفة  
والتعاضي عن نشاطها لأنها وجه دميم للإسلام ودعاهية حقيقة ضده ، وهدم للوحدة ،  
وتسيجيل للفرقة !

من أجل ذلك يحاربون الفكر المعقول ، أو الإسلام الصحيح ، ويطاردون أتباعه  
على حين يترك هؤلاء الغلة يثيرون الشبه ، ويشعلون حروبًا داخلية تقضي على  
الإسلام ومستقبله ، وذاك سر انتشارهم في آسيا وإفريقيا !

إنهم لو نجحوا - قصوا على الإسلام في مهده بقصورهم العقلى ، فليتركوا التحقيق ذلك !!  
ونتجاوز حكاية فقه الفروع إلى حكاية أخرى أدهى ! كنت أقرر أن أحاديث الأحاديث  
يعمل بها في الأحكام الشرعية القائمة على العلم الظنى أو الظن الرابع ..

فسؤال طالب : هل يبني على الظن عمل ؟ قلت تدبر قوله تعالى : ﴿فَإِنْ طَلَقْهَا  
فَلَا تَحْلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تنكح زوجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَقْهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجِعَا إِنْ ظَنَّا  
أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup> .

(٢) سورة البقرة . ٢٣٠ .

(١) كانت تاتشر رئيسة وزراء إنجلترا وقتذاك .

إن أحوال الناس ومسالكهم تبني غالبا على ما يترجع لديهم من أحكام ، وأحاديث الأحاديث ثبتت في الدماء والأموال ، والأعراض على هذا الأساس ...  
أما أصول الاعتقاد ، وأركان الإيمان فتستمد من نص قطعى الدلالة ، قطعى الثبوت ، وهذا ما عليه جمهور الأئمة ..

قال الطالب - وهو سلفي كما ظهر لي - : حديث الأحاديث مصدر للاعتقاد !  
قلت - محاولا الاختصار - : ليس في ديننا عقائد تقوم على حديث أحاديث !  
عقائدها كلها ثابتة بأدلة قاطعة ، ولا داعي للجدال !  
قال الطالب : عقيدة القدم ثبتت بحديث أحاديث ! فرددت كلمة الطالب بضيق شديد ، وغاظني منه أن يستأنف كلامه قائلا : وفي راوية أخرى ذكرت كلمة رجلٍ بدل كلمة قدم .

قلت : تعنون أن ثبت أن لله رجلا ؟ ونعد ذلك من عقائد الإسلام التي نلزم الناس بها ؟ قال : نعم ، وذاك رأي سلف الأئمة ..

قلت : ما أجرأكم على الافتراء ! إن سلف الأئمة ما تدرى شيئاً عن هذه الرجل ، ولا سمعَ داع إلى الإسلام يكلّف الناس أن يؤمّنوا بها ..

أصل القصة وتفصيلها ذكره القرطبي على نحو واضح سليم .. قال في صحيح مسلم والبخاري والترمذى ، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوى (١) بعضها إلى بعض وتقول قطْ قطْ بعزتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشيء الله خلقاً فيسكنهم فضل الجنة » لفظ مسلم .

وفي راوية أخرى من حديث أبي هريرة : « أما النار فلا تمتلىء حتى يوضع الله عليها رجله يقول لها قطْ قطْ فهناك تمتلىء ويُنزوى بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحدا ، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا » قال علماؤنا رحمهم الله : أما معنى القدم هنا فهم قوم يُقدمون الله إلى النار ، وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار ، وكذلك الرجل وهو العدد الكبير من الناس وغيرهم ؛ يقال رأيت رجلاً من الناس ورجلاً من جرَاد .

(١) يُنزوى بعضها إلى بعض : تتقبض على من فيها ، وتشغل بعذابهم ، وتكتف عن سؤال : هل من مزيد ؟

قال الشاعر :

فَمَرِّ بِنَا رَجُلٌ مِّنَ النَّاسِ وَأَنْزَوَ  
إِلَيْهِمْ مِّنَ الْحَسْنَى الْيَمَانِيِّينَ أَرْجُلٌ  
قَبَائِلُ مِنْ لَعْنَمٍ وَغُكْلٍ وَحِمَيرٍ عَلَى أَبْنَى نِزَارٍ بِالْعَدَاؤَةِ أَخْفَلُ

وي بيان هذا المعنى ما روی عن ابن مسعود أنه قال : ما في النار بيت ولا سلسلة ولا مِقْمَعٌ ولا تابوت إلا وعليه اسم صاحبه ، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذي قد عرف اسمه وصفته ، فإذا استوفى كل واحد منهم ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد ، قال الخزنة : قَطْ قَطْ حَسْتَنَا ! أى اكتفينا اكتفينا ، وحينئذ تنزوی جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظرك . فعبر عن ذلك الجمع المنتظر بالرجل والقدم ؛ ويشهد لهذا التأويل قوله في نفس الحديث : « ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة ». وقد زاد (القرطبي) هذا المعنى بياناً في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسمى والحمد لله . وقال النضر بن شميم في معنى قوله عليه السلام : « حتى يضع الجبار فيها قدمه » أى من سبق في علمه أنه من أهل النار .

فأين القدم التي يُمشي عليها في هذا السياق المبين ؟ إن العقائد لا تخترع ولا تُفتعل على هذا النحو المضحك ! عقيدة رجل الله !! ما هذا ؟

قلت : إن أركان الإيمان تؤخذ من نص قطعيّ الثبوت أى متواتر ، قطعي الدلالة أى لا يتحمل معنى آخر ..

وإذا كان الأحناف يرون أن خبر الواحد لا يثبت فريضة في الفروع العملية ، لأن الفرض عندهم يثبت بدليل قطعي لا شبهة فيه ، فكيف نتصور نحن إثباته لعقيدة يكفر منكرها ؟

ولكن الطالب السلفي قال : إن القرطبي أشعر المذهب وإنه أحد المفسرين الجانحين إلى التأويل ، وإنه يشبه الرازى والغزالى ، وإنهم جميعاً مبتداعة لا يؤخذ الإسلام منهم ...

وعلمت أن الغلام مملوء بالجهالة ، وأنه - مثل غيره من أدعياء السلفية - لا تصلح الأرض معهم ولا بهم ...

## الطريق لحل الخلاف في قضية التأويل:

وهنا أجدني مسوقا إلى الكلام عن التأويل ، وتبیان الموقف الصحيح منه ...

إن العقل الإنساني في عصرنا هذا عرف قدره ، وعرف أين يمتد وأين ينكمش ؟  
ففي بحوث المادة انطلق لا يلوى على شيء ! أما فيما وراء المادة ، فقد تراجع وأعلن  
أن هذا ليس ميدانه ...

والعقل الإسلامي عرف هذه الحقيقة لكن بعد ما داخ وكاد يهلك ! والذين اشتغلوا  
بتأويل عندنا سبحوا طويلا في البحر ثم لما أحسوا الغرق عرجوا على أقرب شاطئ  
فنجوا بأنفسهم ! ..

وقد تأملت مليا في مواقف رجالنا قدما فما شعرت في قلب أحدهم بسوء ، ولا  
رأيت أن أحدهم يخطر بباله النيل من أمجاد الألوهية ، أو الحط من عظمتها ! إن  
جمهورهم - في خشوع وأدب - تشرك مع الكون المسبح بحمد ربه ، وتشترك مع  
الرَّكع السجود في التوبة والخضوع .

ربما أسفَ المعتزلة في بعض عباراتهم ، وربما خدعهم الإعجاب بفكر اليونان حينا ،  
وأياماً ما كان أمرهم فإن العقلاه أدانوهم في تأليفهم السلطة على أحمد بن حنبل ،  
وكان ذلك طاويا لرأيهم إلى الأبد ، فانتهوا بخيرهم وشرهم ...

أما الأشاعرة فتنزيتهم لله واضح ، وثناؤهم عليه جميل ، وقد اقتصدوا في  
التأويل ، وسلكوا مسلكا وسطا جعل جماهير المسلمين تنضم إليهم من ألف سنة  
إلى اليوم .

ولك أن تقول : ما قيمة هذا الاقتصاد ، ونحن منهيون عن التأويل جملة وتفصيلا ؟  
ونجيب : إن المتكلمين من سلف وخلف اضطروا إلى التأويل في بعض جمل من  
الكتاب الكريم - والسنة كذلك - توفيقا بينها وبين الآيات الأخرى ، وتمشيا مع حكم  
العقل في إثبات الكمال كله لله تبارك اسمه ، ونفى أى إيهام بما لا يليق !  
تدبر قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعْلُومٌ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾<sup>(١)</sup> قد قال

(١) سورة الحديد ٤ .

المفسرون : المعية هنا معية صفات ، لا معية ذات ، فهو معنا بعلمه وسمعه وبصره وقدرته وحكمته ورحمته .. إلخ ، أما معية الذات فتقتضى الحال وهو باطل ..

وعلى ضوء هذا فسروا قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسِّعُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حِبْلِ الْوَرِيدِ﴾<sup>(١)</sup> وقوله أيضاً : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغْتُ الْحُلُوقَمْ﴾<sup>(٢)</sup> وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ<sup>(٣)</sup> وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ<sup>(٤)</sup>

قالوا : نحن أى ملائكتنا ...

فإذا استحق الأشعري لوما ، لأنه أول آيات ومرويات ابتغاء تنزيه الله تبارك وتعالى فغيره كذلك ملوم ولا معنى لنهاش الرجل وحده بالأسلوب المصور الذي نراه الآن !!

هل يعني ذلك أننا مع الأشعري في منهجه ؟

الحق أنني مع السلف الأول من صحابة رسول الله ، ومع دولة الخلافة الراشدة ، التي لم تفتح بابا لهذه البحوث ! .

وأنظر إلى ابن تيمية والأشعري على أنهما سواء في الإيمان الصحيح ، والغيرة على الإسلام .

وما يأخذ الكاشحون على أبي الحسن<sup>(٢)</sup> ، يؤخذ مثله على ابن تيمية عندما يتوقف في نفي الجسمية عن الله فلا يثبت ولا ينفي ، وهذا خطأ ، وكان ينبغي أن يلتزم بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>(٤)</sup> فيجزم بالنفي ! كما يؤخذ عليه أيضاً نفيه للمجاز في القرآن وفي اللغة العربية كلها ، إن علماء اللغة وأدباءها وشعراءها يتسمون من هذا النفي الغريب ..

ولكن هذه الهنات لا تناول من قدر إمام شامخ كبير العقل راسخ اليقين شديد البلاء ، في نصرة الإسلام ، ورد أعدائه ..

وواجبنا في هذا العصر ألا نجد العراك بين الموتى ، وألا نجتر الخلافات القدية<sup>(٥)</sup> ،

(١) سورة ق ١٦ .

(٢) سورة الواقعة ٨٣ : ٨٥ .

(٤) سورة الشورى ١١ .

(٥) وهذا هو الهدف من الرأي الذي أؤيد ، مع أني - كما ذكرت - على عقيدة السلف الصالحة والحمد لله .

لقطع بها أرحام المؤمنين في هذه الأيام النحسات التي أحدق فيها أعداء الإسلام حول داره ، يريدون هدمها ...

إذا كان المثل يقول : « لا تجعل سُحب الغد تغطى شمس اليوم » فأولى بنا أن نقول : « لا تجعل غيوم الماضي تغطى شمس الحاضر » !!

ماذا يكسبه السلفيون من شتم الأشعري والرازي والغزالى والقرطبي وبقية علماء المسلمين طول عشرة قرون ؟ أليس الأولى بهم أن يدركوا شؤم الخلاف وينجذبوا الأمة بلاءه الآن .. ؟

كنا في الجامع الأزهر ونحن طلاب صغار نعرض رأيي السلف والخلف ، وندرس مواقف الجانبين ، دون حساسيات ، وقد ألفت كتابي « عقيدة المسلم » مؤثراً مذهب السلف لاقتناعي بعجز العقل البشري عن اكتناه الغيبيات ...

بيد أنني ما فكرت في تأليف فرقة لشتم الأشعري وسائر الخلف ، وشغل المسلمين بمحاربة الموتى ، وإلقاء محاضرة في تكفير الغزالى باسم السلف !!

إن أبا حامد الغزالى غفر الله له مُؤله القلب بحب الله ، حار الكلمات في مدحه وحمده ، واقتیاد الناس إليه وتحبيب ذكره إلى نفوسهم !

وما يحكم بکفره مسلم ! فكيف يفعل ذلك منتبه إلى السلف ؟

وأعود إلى قضية التأويل لأسجل بعض مشاعر نفسية وعقلية مرت بخاطري .

لقد كتبت قبل ذلك أن اللغات من وضع البشر يعبرون بها عما ألفوا من أشخاص وأشياء وأفكار في عالمهم المأنوس لهم ، وأن هذه اللغات أعجز عن تصوير أمجاد الألوهية ، وأفاق الكمال الأعلى ، وأن الوحي الإلهي عندما يخاطب الناس فهو يُقرب إليهم بالفاظهم ما يناسب أفهمهم ...

كنت ذات يوم جالسا مستغرقا في تفكير عميق ، فلمحت ذبابة تطير قريبا مني ! فتساءلت : أتعرف هذه الذبابة مايدور برأسى ؟ بداهة لا .

إنها دون ذلك كثيراً كثيرة ! قلت : إن عباقرة الجنس البشري ، لو تسلسل تفكيرهم يمتدّ بعضه بعضاً ليعرفوا طرفاً من حقيقة الذات العليا ، لكانوا أعجز من هذه الذبابة ... إن شأن الألوهية أجل وأسنى !!

وتساءلت : كم أشغل أنا من مساحة أو من حيز على ظهر الأرض ؟

أشبار معدودات في عدة أشبار ! وتساءلت في نفسي شيئاً ما ، ثم ازدادت تضليلي وأنا أقول : إن الأرض كلها تأخذ من مساحة الكون الكبير أقل من الحيز الذي أخذه أنا منها ! إنها داخل الملائكة الفخم تشبه الهباء التي ترتعش في شعاع من الشمس . لو فنيت هذه الأرض بمن فيها وما فيها ، ما نقص الكون شيئاً طائلاً ، ولو فني الكون كله ما ضار المجد الإلهي شيئاً .

وتسلل إلى قلبي إحساس بالرهبة ، وأنا أتدبر قول ذي الجبروت والعظمة - مهدداً من أشركوا به - ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنَّ أَرَادَ أَنْ يَهْلِكَ الْمُسِيحَ أَبْنَى مُرِيمَ وَأَمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾<sup>(١)</sup> لا أحد ، إن الملائكة والمرسلين ومن دونهم فقراء إلى الله ، وهو غنى عن العالمين .

وتذكرت أنني أتنفس بلا تفكير ، نعم كم شهيقاً وكم زفيراً في كل دقيقة ؟ عشرات المرات ، والعمر مربوط بهذه الأنفاس ، فلو توقفت فاضت الروح .

خمسة مليارات من البشر يتنفسون ، وأضعاف أضعاف هؤلاء من الطيور ، والزواحف ، والدواب الهايمة والسائمة والعائمة .

من يهبي لأولئك كلهم الهواء الصالح لهم ؟

قال العلم : يحتاج الأحياء إلى الأوكسجين ، ويحتاج النبات إلى الكربون ، ويتم تبادل بين النوعين ليأخذ كلاهما ما يُبيّنه !

ترى كيف يتم هذا التبادل ؟ وأين ؟ وكيف يتبع العلم الإلهي مسار كل زفير وشهيق في هذا الجو الرحب ليبلغ مداه ، ويتم دورته ، ويتحقق نتيجته ؟؟؟

إننا معاشر الإنس والجن - لا نعرف إلا القليل عن عالمنا ، فكيف يدرك عالم الغيب من يجهل عالم الشهادة ؟ وكيف يحاول الغرور البشري اكتشاف الذات ، أو الصفات العليا ؟

أحسب أن البطالة النفسية ، والتطاول الرديء من وراء الترف العقلى في علم الكلام .

---

(١) سورة المائدة ١٧

جماعة يوغلون في التنزيه إلى حد التجريد ، وأخرون يبالغون في الإثبات إلى حد التجسيد ، والقرآن الكريم بعيد عن المسلكين ، ونحن لا نقبل إلا منهاجه ، ولا نأخذ عقائدهنا إلا من توجيهه الحق ، ننطلق أو نتوقف وفق ما يريد .

واللطيف أن العلم بعد ارتقائه المعاصر ، يهدى إلى الله بالأسلوب القرآني ، لا بالفكرة السطحية ، ولا بالتعمعق التائه ، وقد تدبرت كتابات علماء الكون والحياة فوجدتهم استدلوا بالملوك على صاحبه ، وعنت وجههم أمام عظمته ، ثم استيقنوا بعد ذلك من عجزهم عن اكتناه ذاته ، فتوقفوا مبهورين ، ولو وضعتم تجاه أعينهم آيات القرآن الكريم لقالوا : «**ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ**»<sup>(١)</sup> هذا ما نريد أن نقول ، ولكننا لا نعرف .

وتعابيرهم تدل على وحدة الشهود لا وحدة الوجود ! فهم عالمون بأن الخلق غير الخالق ، وأن العالم غير مبدعه ، غير أنهم يهتفون باسم الله عندما تبرق أمام أعينهم آياته ، وتكتشف الأسرار عن حكمته وقدرته ! وهذا الهاجف عودة إلى الخالق ، الذي نطق صناعته بجلالته .

قلت لنفسي يوما : ما أثقل هذه الأرض ! ما أثقل جبالها وبحارها والمحيطة وغير المحيطة ، وصحابتها وباريتها ... من يحملها في هذا الفضاء ، ويديرها أمام أمها الشمس ؟ بل من يحمل الشمس نفسها - وهي عضو في مجرة هائلة - بين ألفي ألف مجرة تسحب في جو السماء ؟ وهمست شفتاي بالجواب : من ؟ إلا الله ! ثم قلت : ذاك الخاطر بعض ما جاء في السنة الشريفة «**سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ** ، عدد خلقه ، ورضاه نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته »<sup>(٢)</sup> !!

ورجال العلم الحديث بعداء عن الجدل الفلسفى ، والشقشقة اللغوية ، فإذا نظر أحدهم إلى سبنلة قمح ، أو كوز ذرة ، فقال : الله ! فلا يعني إلا الإشارة بقدرة استخرجت من الطين هذا الحب المترافق النضيد ، وأبرزته سطورا سطروا كأنه قصيدة رائقة ..

إنه المعنى السهل الذي خصه الشاعر العربي بقوله :

**وَفِى كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ** تدل على أنه الواحد ... !

وقد رأيت الإحساس بالله سيطر على بعض الكتابين والعلميين والمتصوفين ، فجاءت عباراتهم تدل على الله ، أكثر ما تدل على العالم ، وسر هذا الاستغراق الحسى أن الله

(١) سورة الكهف ٦٤ .

هو وحده مصدر الإِيجاد والإِمداد ، وأن وجود الأحياء عارٍة من موضع لهم من الحى القيوم ، وإلا فليس لهم من ذواتهم إلا العدم ، وإذا كان فى الأرض والسماء ما يعجب أو يروع ، فالفضل لذى الجلال والإكرام لا غير ، أجل ، فما يكون هذا الغير ؟  
 هـ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء علـيم <sup>(١)</sup>

ذاك سر الصرخات المنكرة ، التى أرسلها ابن عطاء الله السكندرى فى وجه أناس لا يرون الله ! منهم ملاحدة ينكرون ويطلبون الدليل على وجوده ! ومنهم أهل دين لا يحسون أنه منهم قريب مع أن منه دقات قلوبهم ومحات عيونهم ، يقول ابن عطاء الله :  
 كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الذى أظهر كل شيء ...

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الذى ظهر بكل شيء <sup>(٢)</sup>

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الذى ظهر فى كل شيء <sup>(٣)</sup>

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الظاهر قبل وجود كل شيء

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو أظهر من كل شيء ...

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الواحد الذى ليس معه شيء <sup>(٤)</sup>

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو أقرب إليك من كل شيء ..

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ ولو لا ما كان وجود شيء ...

شتان بين من يستدل به ، وبين من يستدل عليه ! المستدل به عرف الحق لأهله فأثبتت الأمر من وجود أصله ! والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، وإن فمتى غاب حتى يستدل عليه ؟ وممتى بعـد حتى تكون الآثار هـى التى توصل إليه ؟

فى فجر النهضة العلمية الحديثة فى بلادنا ألف الشيخ محمد عبـد «رسالة

(١) سورة الحديد ٣ .

(٢) ، (٣) آياته ودلائل جلاله وجماله هـى التى ترى وتدل عليه .

(٤) الوجود واحد وإن كانت الموجودات كثيرة ، فالأشياء لا تقوم إلا بربها ولا وجود لها إلا منه ذلك ، ونفت النظر إلى ما قررناه آنفـا عن وحدة الشهود ..

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تشـد أولى الألباب إلى من له الخلق والأمر ، وتزجرهم عن الاحتباس فى المادة الهامدة ونسـيـانـا من العـدـمـ إلىـ حينـ : «كل شيء هـالـكـ إـلاـ وجـهـهـ» ...

التوحيد» اجتهد الرجل فيها أن يعرض علم العقيدة في ثوب جديد ، فابتعد عن الجدل ، وأبى أن يلمز واحدا من المتكلمين ، وعددهم جميرا إخوة يبحثون عن الحق ، ثم شرح القضايا الأصلية في ديننا شرحاً حسناً ، وقدم لها خلاصات نقية ..

وتألفت بعد «رسالة التوحيد» كتب في العقيدة بَنَتْ ولم تهدم وجمعت ولم تفرق ، وتحاشت الماضي الذي قسمنا في المجال الثقافي والسياسي فرقاً يشقى بها المؤمنون ويسعد بها الكافرون ، وأسهمت أنا في هذا الميدان بكتابي «عقيدة المسلم» الذي ألفته من ٣٥ سنة تقريباً<sup>(١)</sup> ، وأرجو أن ينفع الله به .

لكن هوا الشقاق يأبون إلا استحياء الخلاف ، وما أغنانا عنه !

إن ثقافتنا الإسلامية كلها عندما تعرض الآن ينبغي أن تغربل بدقة ، حتى يتساقط التافه في صمت ، ويبقى ما ينفع الناس ... ونحمد الله أن بقي كتابه محفوظاً ، وأن بقيت السنة محروسة بالعلماء الثقات والفقهاء الأماناء .

وننصح إخواننا العاملين تحت راية «السلفية» أن يُقدِّرُوا شرف هذه الرأية ، وألا يقلبوا الأمور لأمة تريد النهوض ، وأن يتركوا قصة التكفير والتفسيق لعبد الله ، فإنهم يهدمون أنفسهم قبل أن يهدموا غيرهم ...

\* \* \*

---

(١) أى حوالي سنة ١٩٥٠ تقريباً .

## حد أدنى لثقافة المسلم..

لو كان الإسلام فلسفه أخلاقية لأمكن أن ينهض به بعض الوعاظ والمربيين !  
ولو كان نظاما سياسيا فقط ، لأمكن أن يقوم به حزب من الأحزاب الراغبة في  
الحكم !

إنه مجموع الأمرين ! والتعريف به والبقاء عليه لا يتم إلا بصياغة علمية شاملة !  
بيد أن علم الكلام ، وعلوم العقيدة إجمالا لم تحسن هذه الصياغة ، أو لم تقدم لها  
خلاصة نقية ! فهناك بحث هل العمل شرط أو شطر في الإيمان ؟ أو لا شرط ولا  
شطر ؟ وهناك قول عجيب في أن الإسلام قد ينفك عن الإيمان ! وإنى لاستغرب كيف  
يذكر قول بأن الإسلام - وهو دين الله - يمكن ألا يكون معه إيمان ؟

وهناك قضايا حُشِّيتْ بها الأذهان ، وهي فضول أو ذيول يجب قطعها ... مثل :  
الاستثناء في الإيمان ! .. الحرام رزق ! .. المقتول ميت بأجله ! .. إنها قضايا تافهة ،  
وكان أولى بالعرض الجيد علاقة المسلم بالله كما وصفها القرآن الكريم ، فإن هذه  
العلاقة تتكون من جملة أخلاق يكون الإيمان صفرأً بدونها ، ولا أدرى من يهتم بها إذا  
لم يهتم بها علماء العقيدة ؟ إنها تركت للأسف للمؤلفين في التصوف على أنها  
مراحل الطريق ، أو للمتحدثين في الوعظ على أنها من مرقدات القلوب ، ومكانتها  
الأولى كما قلنا في علم التوحيد إذ لا دين مع فقدانها ...

### ١- خشية الله

فحشية الله من عناصر الإيمان الأولى ، وتدرك ذلك من آيات شتى وثبتت الصلة  
بين الخوف والإيمان . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ  
فَإِيَّاهُ يَفْرَهُونَ ﴾<sup>(١)</sup> فالشعور بالرهبة يغمر الفؤاد من الله وحده !

(١) سورة النحل ٥١ .

وقد يتعرض المؤمن في حياته لخواوف شتى . لكن خوف الناس يتلاشى أمام إجلال الله واعظام أمره : ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يَخْوُفُ أُولَئِكَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup> ولما طلب من اليهود أن يدينوا دين الحق كان أول ما كلفوا به : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّا يَ فَارِهِبُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

وعندما وعد الله المؤمنين بالنصر على الأعداء ، ربط وعده بهذه الرهبة الضابطة بسلوكهم فقال : ﴿لَنُهَلْكَنَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٣)</sup> ولنسكنكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعدي<sup>(٤)</sup>

وبين أنه على قدر معرفة الله تكون خشيته : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾<sup>(٥)</sup>

ومع وعد المؤمنين الصالحين بحسن العقبى ، أكد أن ذلك لا يتم إلا مع خشية الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمُ خَيْرُ الْبَرِّيَةِ﴾<sup>(٦)</sup> جزاهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه<sup>(٧)</sup>

أين تكون التقوى إذا انتفى الخوف ؟ وأين ينبع الضمير الصالحي ؟

## ٢ - رجاء الله

ونذكر بعد الخوف الرجاء فإن جمهرة الناس تسيرهم مشاعر الرغبة والرهبة ، والوعد والوعيد ! وقد كان لسيف المعز وذهبه أثرهما فى استقرار دولته ..

والرجاء فى الله له معنى أشرف وأذكى ، فإن المرء فى هذه الدنيا لا يفلت من غيمة إلا لتحتويه أخرى ، ولو لا شعاع الرجاء فى قلبه لغاب فى الظلم . وهذا الرجاء

(١) سورة آل عمران ١٧٥ .

(٢) سورة البقرة ٤٠ .

(٣) سورة إبراهيم ١٣ ، ١٤ .

(٤) سورة البينة ٧ ، ٨ .

(٥) سورة فاطر ٢٨ .

يومض من الإيمان بالغيب ، والثقة فيما عند الله ، ومن ثم فإن الماديين لا يعرفونه ، لأنهم محجوبون بالأسباب الظاهرة ، يستمدون أحكامهم من عالم المحسوسات وحسب .

وقد كان يعقوب مكذباً لمن حوله ضائقاً بهم عندما قالوا له : ﴿ تَالَّهُ تَفْتَأِ تَذَكَّرُ يُوسُفُ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوْ بَشَّيْ وَحْزُنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩) يَا بَنِي اذْهِبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تِيَأسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَأسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (١٠) ﴾

وتحقق رجاء يعقوب بعد لآي ، وتلك سنة الله في عباده ، ولا بد من الاستكانة لها فهو القائل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالْعَلْمِ أَمْرُهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (١١) ﴾

والرجاء في الله يحتاج إلى مهاد من الصالحات : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتَلَوَّنَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَنَا هُمْ سَرَا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (١٢) ﴾

ويحتاج الأفراد والجماعات إلى الرجاء والدعاء في جهادهم لأنفسهم وجهادهم للناس . فلا شيء أقتل للنفس من فقدان الأمل ، وغلبة القنوط ، وانكسار الإرادة .

وفي القرآن والسنة آيات وحكم تجدد الرجاء وتغرى بالدعاء ، وتهزم الآلام والفتن مهما طال حصارها واستحكمت حلقاتها ..

وقد تأملت في قعود القاعدين ، واستسلام المقهورين فلم أر لهم علة إلا عدم الرجاء في الله ! وما ضاع الرجاء إلا مع ضياع اليقين ..

#### ٤- الصبر والشكر

الصبر والشكر ، وهما ركنا الإيمان ، بعد أن يتحول من صورة ذهنية إلى واقع عملي ! إننا نحب أن نعيش «متفرجين» ننظر إلى ما يعرض لغيرنا في هذه الدنيا ، كما ينظر الأطفال إلى برامج «التلفاز» ، حسبهم منها النظر والتسلية .

(٣) سورة فاطر ٢٩ .

(٤) سورة الطلاق ٣ .

(٥) سورة يوسف ٨٥، ٨٦، ٨٧ .

دين الله ودنيا الناس ليسا كذلك ، وإنما اشتباك حقيقى مع السراء والضراء ، والخير والشر ، واشتكاك يجر المرء بعيداً عن الشاطئ ليصارع الموج ويواجه الموت ، ثم يعود وهو يلهث ما يصدق أنه عاد . . .

إن الله أمر موسى أن يذكر بنى إسرائيل بتاريخهم مع أعدائهم ، وما عانوا من بلاء ، وما تم لهم من إنقاذ : ﴿ وَذَكَرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَارٍ شَكُورٍ ﴾<sup>(١)</sup>

وقد علمنا سبحانه خبر «سبأ» وتنكرهم لنعمة الله ، ثم ذكر ما أنزله بهم من جزاء فقال : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزْقَنَاهُمْ كُلُّ مُمْزَقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَارٍ شَكُورٍ ﴾<sup>(٢)</sup>

ولست أتحدث عن فضيلتي الصبر والشكر المعتادتين بين الناس ، إنما أعني صبراً يحس صاحبه أن لله ما أخذ ولله ما أعطى ، وأن حق العبودية التحمل دون تملل وضجر ، فإذا حرم المرء ما يحب ، أو كلف ما يكره ، نظر إلى ربه في تسليم ، واستقبل قضاءه دون سخط ..

وكذلك إذا طرت النعماء بابه ، لم يطش لها لبها ، أو يتملكه الغرور فيحسب أنها جاءت إلى صاحبها الجدير بها .. كلا إن اختبار الناس بالسراء أصعب من اختبارهم بالضراء ، والساقطون في امتحانات الرخاء أضعاف الساقطين في الميدان الآخر .

قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذْقَنَا الْإِنْسَانَ مَا نَرَحْمَةً ثُمَّ نَرْعَنَاهُ مِنْهُ إِنَّهُ لَيَعْسُ كُفُورٌ ﴾<sup>(٣)</sup>  
 وَلَئِنْ أَذْقَنَاهُ نِعَمَاءً بَعْدَ ضَرَاءً مَسْتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرَحٌ فَخُورٌ ﴾<sup>(٤)</sup> إِلَّا  
 الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾<sup>(٥)</sup> . ويلاحظ أن  
 كلمة «صبروا» في الآية الأخيرة وضعت مكان كلمة «آمنوا» ، فقد اطرد في النظم  
 الإلهي أن يقترب الإيمان بالعمل الصالح دائمًا ، وإنما تغير اللفظ فقط ، وإلا فكلمة  
 الصبر التي جاءت هنا هي أثر الإيمان وامتداده . . .

(٣) سورة هود ٩ - ١١ .

(٤) سورة سباء ١٩ .

(٥) سورة إبراهيم ٥ .

كما يلاحظ أن إبليس لما أعلن تمرده على ربه أعلن أنه سيصرف الناس عن شكره فهم يأكلون خيره ويعبدون غيره ! وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مِنْ يَوْمِنِ بِالآخِرَةِ مَمْنُ هوَ مِنْهَا فِي شَكٍ ﴾<sup>(١)</sup> .

## ٥- توفير الأسباب

الماء يتعلق بما يملك من أسباب ، ويرى - بعد وفترتها لديه - أن كل شيء يدعو إلى الطمأنينة ، وإلى ذلك يشير الشاعر مستهزئاً بتهديد خصمه له :

**أَيُوعْدُنِي وَالْمَشْرِفُ مَضَاجِعِي ؟      وَمَسْنُونَةُ زَرْقَ كَأْنِيَابِ أَغْوَالِ ؟**

وتوفير الأسباب مطلوب ، بل الغفلة عنها جريمة ! وقد قال الله سبحانه : ﴿ وَذَلِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَعْفَلُونَ عَنْ أَسْلَحَتِكُمْ وَأَمْتَعْتُكُمْ فَيَمْلِئُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾<sup>(٢)</sup> ! والغريب أن المسلمين طالما غفلوا ، وطالما ذهبوا بدداً إثر ميلة واحدة من أعدائهم المتربيسين !

ومع تنويهنا بقانون السببية ، وقيمة العوامل المادية نريد إيصالح حقيقة مقررة في الأرض والسماء هي أن الأمور لا تبلغ قامها إلا بإذنه تعالى ، فما ينقطع مقطوع ، ولا يتصل موصول ولا ينبت نبات ولا يحيى حي إلا وفق المشيئة العليا .

والإنسان قد يملك أسباباً ولكنه لا يملك الأسباب كلها ، ولو ملكها كلها فهو لا يملك الأسباب المضادة لها ، بل إن تيار الحياة الذي يمدّ القلب بالنبض ، والعقل بالتفكير ، والأعصاب بالحسن ، ليس ملك الإنسان نفسه ، بل ملك واهب الحياة الذي له الخلق والأمر ، وب بيده النفع والضر ، والهزيمة والنصر ، والتقدم والتأخير ...

من أجل ذلك يجب التوكل على الله والركون إليه والاعتقاد أن النتائج المرتقبة لكل سعي مرهونة بمشيئة وحده . وتدبر قول الله لنبيه : ﴿ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَّلِّ إِلَيْهِ تَبَّلِّا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾<sup>(٣)</sup>

(١) سورة سباء ٢١، ٢٠

(٢) سورة النساء ١٠٢

(٣) سورة الزمر ٨ - ١٠

ويتأكد هذا التوكل في الفترات المُرّة التي يضعف فيها الحق ، وتقل الأسباب المادية معه ، وتفحش مع المبطلين . قال تعالى على لسان رسle المستضعفين : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيْكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾<sup>(1)</sup> وَمَا لَنَا أَلَا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سَبِيلًا وَلَنْصِيرَنَا عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾<sup>(1)</sup>

والتوكل ركن الإيمان في حالتي القوة والضعف ، فلا القوة - مع التوكل - تغر ولا الضعف يقهـر بل يبقى المسلم متزن الأعصاب معـدل الأحكـام ، عارـفاً بـحدود قـوته مع من لا تـحدـله قـدرـة ، ولا يـغلـبـ على أمرـه أبداً ...

## ٦- حب الله

وـجمهـورـ المسلمين يـحسبـ هذاـ الحـبـ صـفـةـ كـمـالـ ، أو درـجـةـ عـلـيـاـ لـبعـضـ العـابـدـينـ ! وهذاـ غـلطـ شـنيـعـ ، فـإـنـ فـقـدانـ هـذـاـ الحـبـ فـسـوقـ ، ويـغلـبـ أنـ يـتـهـىـ إـلـىـ الـكـفـرـ الـبـواـحـ ...

إـنـ اللـهـ يـصـفـ المـشـرـكـينـ فـيـقـولـ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحْبَ اللَّهِ ﴾<sup>(2)</sup>

وهـذاـ وـصـفـ دـقـيقـ ، فـقـدـ رـأـيـناـ مـنـ الـكـافـرـينـ بـالـلـهـ مـنـ يـفـتـدـىـ كـفـرـهـ بـدـمـهـ وـمـالـهـ ، وـمـنـ يـشـمـئـزـ إـذـ ذـكـرـتـ كـلـمـةـ التـوـحـيدـ ، وـمـنـ يـقـطـبـ جـبـيـنـهـ إـذـ رـأـيـ مـؤـمـنـاـ وـيـوـدـ لـوـ خـسـفـتـ بـهـ الـأـرـضـ !

وـتـأـمـلـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : ﴿ وَإِنْ يَكُادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذـكـرـ وـيـقـولـونـ إـنـهـ لـمـجـنـونـ ﴾<sup>(3)</sup>

ماـذـىـ يـوـقـفـ هـذـهـ المشـاعـرـ الـحـادـةـ ؟ ماـذـىـ يـرـدـ هـذـاـ الحـبـ الـمـكـيـنـ لـلـبـاطـلـ ؟ يـقـولـ اللـهـ تـعـالـىـ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًّا لِلَّهِ ﴾<sup>(4)</sup>

إـنـ الـعـاطـفـ الـفـاتـرـةـ وـالـأـنـفـاسـ الـبـارـدـةـ لـاـ تـحـمـىـ حـقاـ وـلـاـ تـصـوـنـ شـرـفـاـ لـاـ سـيـماـ إـذـ حـشاـ الـبـاطـلـ جـنـودـهـ بـالـأـوـهـامـ ، وـدـفـعـهـمـ بـبـأـسـ شـدـيدـ إـلـىـ اـقـتـحـامـ كـلـ زـحـامـ ...

(١) سورة إبراهيم ١١، ١٢، ١٦٥ .

(٢) سورة البقرة ١٦٥ .

(٣) سورة القلم ٥١ .

لقد وصف الله الرجال الذين يصلحون لدينه بأنهم قوم : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذْلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَا إِمْرَأٌ﴾<sup>(١)</sup>

والواقع أن علم العقيدة عندنا لما اتسم بالجدل ، وأضفت عليه فلسفة اليونان ، الأخذ والرد والبحث والنظر ، تحول إلى علم جاف عقيم ، وأمسى قدرة عقل على الاستدلال ، لا قدرة قلب على تذوق حلاوة الإيمان ، ويجب أن نعود إلى قواعدها الأولى ...

#### ٧- ذكر الله

ربما ابتسم بعض الناس ، ونحن نذكر هذا الركن الجليل ، وقال : نزعة صوفية . الواقع أن عصرنا هذا أفقر العصور إلى معرفة هذا الركن ، وانه يكاد يهلك جفافا لنسيان الله ، وركضه وراء مأربه .. إن الناس في عصرنا لا يعرفون إلا أنفسهم ؛ ولذلك لا يذكرون غيرها ! .

والإنسان الأوروبي - قائد هذه الحضارة - يصحو من رقاده ، وينظر إلى كلبه مبتسمًا ، ويرمى إليه طعامه ثم يذهب إلى عمله باحثا عن طعامه هو ، ما رفع عينه إلى السماء ! ما حيى ربه بكلمة ، ما الفرق بينه وبين كلبه ؟ لا فرق إلا أن هذا حيوان أعمى ، وهذا حيوان ناطق ، امتاز بعقل أذكي فهو يستحضر ذكاءه في متعة أكبر وسيادة أظهر .. ثم لا شيء .

وقد يموت بعذذ حتف نفسه ، أو في حرب عدوانية شنها على غيره بطرا ورثاء الناس ، أو في حرب دفاعية يخوضها لتأمين ضروراته ومرفهاته وحسب !

هذه إنسانية الحضارة الغالبة ! ودعك من أديان تعيش في كنفها ، ربما تساعدها على شرودها ؛ لأنها لا تدرى عن الله الحق شيئا .

ذكر الله تجديد أو توكييد لمعرفته الأولى ، بعد الإيمان به ، ألا ترى التلميذ يقرأ كتابه ثم يعود إلى قراءته مثنى وثلاث ليبقى عارفا بما فيه .

والإنسان في هذه الدنيا يحتاج إلى مذكر دائم ل تستدعي معرفته لربه ، وإلا نسى ، وطال عليه النسيان فجهل ..

(١) سورة المائدة ٥٤ .

وقد يكون الذكر «جهاز صيانة» يصلح ما تعطل ويجدد ما بلى حتى لا تعطل الوظيفة الأصلية ، ويُفقد ما لدينا قيمته ، وذاك سرّ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>(١)</sup> وقوله : ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هُوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فِرْطًا﴾<sup>(٢)</sup> .

ومعنى الذكر المطلوب واضح فهو عملية عقلية روحية تعيد الانتباه ، وتحلوا الصدأ وتردّ للبيتين قوته وأثره ! وليس هو ما يتجمع في حلقاته الهمل ، لهم بعما<sup>(٣)</sup> منكر ! هذا رقص يحسنه الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ...

## ٨- التوبة

التوبة خلق لا ينفك عنه مؤمن . وقد تحدث علماء الكلام في هذا الموضوع تحت عنوان فاعل الكبيرة ! وكان لا بد من الحديث عنه في دين عنوانه الإسلام أي الخضوع للله وتنفيذ أمره !

إلا أن الحديث اصطحب بطابع الجدل والتراشق بالألفاظ والتهم ، فضرّ أكثر مما نفع .

وانقسم المسلمون الأوائل فيه إلى فرق شتى : فهناك الخوارج : وهم بدؤ لا خبرة لهم بأغوار النفوس وليس لديهم فقه ينسقون به أنواع الأدلة ، ولا يدركون شيئاً عن آثار الظروف والملابسات في تصرفات الإنسان ، وهؤلاء يحكمون بكفر فاعل الكبيرة .

وهناك المعتزلة : الذين ذهبوا إلى رأي عجب ، وهو القول بعزلة بين المنزلتين ، فال العاصي عندهم ليس بمؤمن ولا كافر ! ليس بكافر لأنّه يعرف الله ، وليس بمؤمن لأنّه عصاه .

وهناك المرجئة : وهم قوم لم يعطوا السلوك كبير قيمة ، فالمؤمن لا يفقد إيمانه بتترك واجب أو بفعل محرم ، ولو بقى على ذلك حتى بلغ أجله ، وهو مذهب استرخاء فوضى وإن شاع للأسف بين العوام ...

والجمهور على أن من لم يتبع من ذنبه فأمره مفوض إلى ربه ما دام قد مات على التوحيد ، إلا إذا استباح حراماً أو جحد فريضة فهو بذلك ينسلخ عن الإيمان .

(٣) صوت غير واضح .

(٤) سورة الكهف ٢٨ .

(٥) سورة الحشر ١٩ .

وما نحب أن نضيف هنا جديدا ، ولعلنا استوفينا هذا البحث في كتابنا « عقيدة المسلم » غير أنها نرفض الاعتراف بما يقع الآن في العالم الإسلامي من فتن مظلمة .  
فهناك أناس انضموا للشيوخية ، وانسلخوا فعلاً عن الإسلام ، وهم - ثقافيا وسياسيا - مع الشرق الشيوعي .

وهناك أناس تنكروا فعلاً لدينهم ، وانضموا إلى الجبهة الصليبية ، يعاونونها على وأد الإسلام وقتل شرائعه ..

وهو لاء وأولئك إذا هلكوا على تلك الأحوال ماتوا على غير ديننا ، ولا يغنيهم شيئاً أن يدفنوا في مقابر المسلمين : ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْرَجْنَاكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١) .

تلك الأخلاق الثمانية التي أحصيناها آنفا هي عناصر حقيقة للإيمان وهي - بعد معرفة الله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا - التي تحدد علاقة المؤمن بربه ، ولذلك المباحث التي أضافها البعض إلى علم العقيدة فهي أقرب إلى اللغو منها إلى الجد .

وثم أمر يتصل بكيان أمتنا وإن شغلنا عنه بما هو دونه ، وأعني به الأخلاق الزكية ! خصوصاً الأخلاق التي عَذَّ النبي - ﷺ - تركها نفاقا ...

إن أمتنا شغلت نفسها بفروع الفقه وصوره الجزئية أكثر مما شغلت نفسها بالتربيـة الأخلاقـية ، وهذا خلل هـزـبـنـاءـهـاـ الرـوـحـىـ وـالـاجـتمـاعـىـ ، وـأـوـجـدـ أـجيـالـاـ مـنـ الـمـتـطـعـينـ لاـ يـحـسـنـونـ مـعـاشـاـ وـلـاـ مـعـادـاـ .

### الحكمة \* .. والضبط الاجتماعي

وننتقل الأن إلى جانب آخر من حياتنا الاجتماعية .

لقد وردت كلمة الحكمة في القرآن الكريم عشر مرات ، وجاء الأمر بتعليمها مع القرآن نفسه في أربعة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتَلَوَّ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ وَيَعْلَمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٢) .

(١) سورة التوبـةـ ١١ـ . \* لـكـيـ يـفـهـمـ مـعـنىـ الـحـكـمـةـ لـابـدـ مـنـ التـدـبـرـ فـيـ النـصـوصـ الـقـرـآنـيـةـ الـوارـدةـ حـتـىـ يـتضـعـ

معـناـهـاـ مـنـ خـلـالـ النـسـقـ الـقـرـآنـيـ . (٢) سورة البقرـةـ ١٥١ـ .

وظاهر أن تعاليم الكتاب والحكمة أحد عناصر ثلاث هي التي تكون رسالة  
محمد - ﷺ - ، وغاياتها الرئيسية .

وافتراض الحكمة بالكتاب جعل البعض يتهم أن المراد بها السنة الشريفة !  
ودون أي مساس بمكانة السنة نرى أن هذا الفهم بعيد . فللحكمة معنى آخر نأخذه  
من مواضع الكلمة في السياقات الأخرى ...

جاءت كلمة الحكمة في سورة الإسراء بعد هذه التوجيهات : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ  
لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا ﴾<sup>(١)</sup> وَلَا تَمْشِ فِي  
الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجَبَالَ طُولاً <sup>(٢)</sup> كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَهُ عِنْدَ  
رَبِّكَ مَكْرُوهًا <sup>(٣)</sup> ذَلِكَ مِمَّا أُوحِيَ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ <sup>(٤)</sup> .

و جاءت الكلمة في سورة لقمان : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لِقَمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ <sup>(٥)</sup> ثُمَّ  
شَرَعَ لِقَمَانَ يَفْصِلُ حِكْمَتَهُ فِي وَصَائِيَاهُ لَابْنِهِ مُبْتَدِئًا بِغَرْضِ التَّوْحِيدِ ، وَاحْتِرَامِ الْأَبْوَيْنِ  
إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ : ﴿ وَلَا تُصْعِرْ خَدْكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ  
كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ <sup>(٦)</sup> وَاقْصِدْ فِي مُشِيكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ  
لَصُوتُ الْحَمِيرِ <sup>(٧)</sup> . <sup>(٨)</sup> .

و جاءت الكلمة الحكمة عند استعراض آلاء الله على نبيه داود في سورة (ص) :  
﴿ وَذَكَرَ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِيْدَ إِنَّهُ أَوَّابٌ <sup>(٩)</sup> إِنَّا سَخَرْنَا الْجَبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَّ بِالْعَشَيِّ  
وَالْإِشْرَاقِ <sup>(١٠)</sup> وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً كُلُّهُ أَوَّابٌ <sup>(١١)</sup> وَشَدَّدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ  
الْخَطَابَ <sup>(١٢)</sup> .

والحكمة هنا تتوسط عظمة الملك ، وعظمة البيان ، ويزداد معناها وضوحاً عندما  
نضم إليها ما جاء في سورة البقرة بعد انتصار داود على أعدائه : ﴿ وَقُتِلَ دَاوُودُ جَالُوتُ  
وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلِمَهُ مَمَّا يَشَاءُ <sup>(١٣)</sup> .

(١) سورة الإسراء ٣٦ - ٣٩ .

(٢) سورة لقمان ١٨، ١٩ .

(٣) سورة ص ١٧ - ٢٠ .

(٤) سورة البقرة ٢٥١ .

(٥) سورة لقمان ١٨، ١٩ .

(٦) سورة البقرة ٢٥١ .

ويظهر أن الحكمة من خصائص النبوات التي تسوس الناس ، وتنمى ملكاتهم النفسية ، وتنظم صفوهم في طاعة الله بشتى التوجيهات ، وذلك ما تشير إليه سورة النساء عند تقرير اليهود : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾<sup>(١)</sup> أي أن الحكمة وإن عنت الآداب والسير الرفيعة فهي تعنى كذلك الشرائع التي تشدة أوصال المجتمع وتحرس كيانه .

وقد ذكر الله سبحانه في سورة آل عمران أنه أنعم بالحكمة على عيسى بن مريم : ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْتُّورَاةَ وَالْإِنجِيل﴾<sup>(٢)</sup> .

إن هذه الحكمة رحبة الدلالة ، ولكنها تضم أول ما تضم التوجيهات والتقاليد التي تتماسك بها الجماعة ، كما يتماسك الجسم بجهاز عصبي ذكي سريع ..

• وأحسب أن الحكمة هي المعنى الباطن لكلمة الميزان ، وأن الميزان هو الجانب العملي لكلمة الحكمة ، وقد وردت كلمة الميزان في مواضع من الكتاب العزيز ، منها قوله : ﴿الَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحُقْقَ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكُ لَعِلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُولُ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾<sup>(٤)</sup> .

والمعنى الذي لا محيد عنه أن المجتمع لا بد أن يتوازن بالعدل ، وأن يتربّط بالحكمة ، وأنه لا مكان في بناء المجتمعات للعبث والفوضى والجحور ، وإشبع الحياة إلى العلو والظهور ، وإرضاء الراغبين في الاكتناز والتكتاثر ...

ولا مكان في مجتمع مؤمن لسيادة الجهل ، وإقرار الفساد ، والحيف على الضعاف إذ لا يسمع بهذا «ميزان» ولا تسمع به «حكمة» .

(١) سورة النساء ٥٤ .

(٢) سورة آل عمران ٤٨ .

(٣) سورة الشورى ١٧ .

(٤) سورة الحديد ٢٥ .

## التخطيط الصحيح لبناء الأمة

إن الله يوصى الجماعة الإسلامية أن تتعاون على البر والتقوى ، وأن تتوافق بالحق وبالصبر ، وكان المفروض في مجتمع حكيم متزن أن تفسو فيه الأجهزة التي تُيسّر الزواج لمنع الزنا ، والتي تجمع الزكاة لمحارب الفقر ، والتي تعهد الأوقات لتقدير الصلوات ، والتي تقيم المدارس لتنشر العلم ، والتي تؤسس المطبع لنشر الكتاب ... إلخ .

غير أن هذه الأجهزة تكونت تلقائياً في عصور متقطعة ، أو تكون ما يؤدى رسالتها ، ثم بقى الإسلام في «وصاية» الأفراد لأن الحكومات كانت في واد آخر ..

فكيف تتوحد «الحكمة» أو يعتدل «الميزان» في هذا الجو النكد ؟

إن الأخلاق كالزرع الذي يحتاج في نمائه ونضجه إلى متابعة ورعاية .

والتقاليد التي تمسك الأمة وتمنع ميزانها أن يجور أو يغش تحتاج هي الأخرى إلى عقل ناقد وضمير حارس .

وقد رأيت الأخلاق والتقاليد عندنا تحيا وحدها ، أو تبقى في ضمان أفراد طيبين ! أى أن الأمر يخضع للمصادفات العارضة لا للسياسات المرسومة .

وقد نتج عن ذلك - مع ما أصاب الإسلامأخيراً من هزائم - أن صار الكثيرون يحيون بلا هدف ، ويتجمعون ويترفون بلا رباط ولاوعي ... ولا انتماء .

ويستحيل أن يقوم للإسلام مجتمع بعد هذا التفكير الشائن ، بل هذا طريق التلاشي والفناء .

والتخطيط الصحيح لإعادة بناء الأمة (إقامة الميزان) الذي أنزله الله مع كتابه يحقق الحق ، ويبطل الباطل ، ويحترم تقاليد الشرف ، ويرسى دعائم الأخلاق ..

قال لي صديق : إن فلاناً قضى على مستقبله ! قلت : كيف ؟ قال : خُبِطَ في موقف شجاعة ! ! أما فلان فهو فاشل من زمن طويل لأنه يأبى أن يكون إمعة .. ! ..

قلت : أمسك عليك لسانك ، إن الإيمان الحق لا يصيب أحداً بالإفلاس ! وما يذهب العرف بين الله والناس .

وإنما تنتحر الأم بتمردها على الوحي الإلهي ، ورفضها تعلم حكمته ونصب  
ميزانه .

وأرى إشعار العامة والخاصة بأنهم لا يعرفون الإسلام إذا لم يعرفوا هذه الحقائق ..!  
إن علوم الدين ليست كلاماً نظرياً في العقائد ، ولا سرداً تافهاً لأشكال الطاعات ،  
وأحكام الفروع الفقهية !

إذا فسد القلب فسد كل شيء ، وإذا انفصل المجتمع عن العقل المؤمن هلك .

ويقى من علم الدين شيء ، لابد للمسلم أن يأخذ نصيبه منه ، هو علم الدنيا ...!

إنتى أفهم أن يدخل الغزاة البيض مجاهم إفريقياً ، فيسمون أنفسهم معمرين !

لقد وجدوا قوماً لا يكادون يفهون قوله ، فسرقوه من أرضهم ، ونفطهم ،  
وذهبهم ، وحازوه لأنفسهم ! وألهوا جمهورهم بفتات الموائد ، وبعض اللعب التي  
صنعتها المدنية الحديثة ، ولا تنسى أنهم ألهواهم كذلك بصحائف من الكتاب المقدس  
، على أن يكون ولاؤهم للجنس الغازى ... !

لكن لم أفهم ، ولن أفهم أبداً ، لماذا يدخل الغزاة البيض إلى أرض الإسلام  
معمرين ؟

لماذا ينجحون في إخصاب الأرض الجدبة حيث يفشل مسلم - أو بتعبير أصلع -  
مدع للإسلام ؟ ولماذا يتضاعف إنتاج الأرض في أيديهم ويقل في أيدينا أو يتجمد ؟

لماذا يستخرجون الكنوز من بطن الأرض ، ولا نحسن نحن استغلال ما استخفى  
وما استعلن من ثرواتها ؟

إذا كان بعض الناس يقدّم للمحاكمة على جرائم ارتكبها ، فإن هناك أمّا يجب أن  
تحاكم على تفريطها الشائن فيما لديها ، خصوصاً الأمة التي قال لها ربها : ﴿هُوَ الَّذِي  
خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾<sup>(١)</sup> .

---

(١) سورة البقرة ٢٩ .

والإسلام طلب من أتباعه تجويد علوم الدنيا لأمور ثلاثة :

أولها : أن تعمير الأرض جزء من رسالة الإنسان على ظهرها ، جزء من العبادة التي خلق من أجلها ، جزء من الكدح الذي يصون به نفسه وأهله وشرفه ..

والثاني : أن الله لم يخلق الإنسان ليشقي ، ويجوع ويعرى ، بل خلقه مكرماً يحمله ما في البر والبحر ، وأحل له الطيبات ، ويسّر له الزينة والجمال ، بما فوقه من نجوم وبما بين يديه من زرع وضرع ..

وقد شرحنا ذلك بإفاضة في أماكن أخرى من كتابنا فلا تزيد هنا شيئاً ..

لكن الأمر الثالث هو الذي لا نسام من تكراره ، فإن الجهاد المكتوب على المؤمنين لحماية الدين لا يمكن أن يتم ولا أن ينجح بعيداً عن التفوق المدنى والحضارى .

والأمة الإسلامية كي تكون على مستوى دينها ، وكى تنبع في الحافظة عليه ، وكى تستطيع إفهامه للآخرين ، لابد أن تكون راسخة القدمين في شؤون الحياة كلها ، بل يجب أن تكون سباقاً في شتى الميادين ، مسموعة الكلمة في آفاق العلم براً وبحراً وجواً ..

ومن حق الأمم الكبرى - وهى أم تحقر الأمية العلمية والصناعية - أن تنظر إلى دعاوى المسلمين وأفكارهم وقيمهم ببريبة أو بسخرية ما دام المسلمون نماذج رديئة للتخلّف الإنساني ..

وفي ظني أن لهذه العلة سببين : أحدهما ثانوى وهو تغلب طبائع البدو على تعاليم الإسلام ، فإن البدو يكرهون الحرف ، ويزدرؤن الصناع ، وينظرون إلى الفلاحين نظرة نابية ، إنهم يأكلون من كذا أيانهم ، ومع ذلك يترفعون عليهم !!

وقد كانوا قد يباشرون السيف من الهند وما جاورها ليستعينوا بها على الغزو والسطو ولا يكلفون أنفسهم صناعتها ، ولا يزال أعداد من الأعراب يرون الحدادة والنجارة مهانة ، ويأبون بشتم أن يقوم أحدهم من تحت سيارة يصلحها أو جرار يكشف سبب عطله ..

وكنا ندرس ونحن طلاب أن لفظ « آل » لا يضاف إلا إلى الأشراف ، فلا يقال :  
آل الحجام ولا آل الإسكاف !!

ولا ريب أن لهذه البداوة الغبية أثراً ملحوظاً في دنيا العرب إلى اليوم .

أما السبب المهم في التخلف الحضاري فهو شيوع التدين المزيف ، ووقوع الثقافة الدينية إجمالاً بين طوائف من ذوي المعادن الرخيصة أو العقول المعتلة ...

ويغلب على هؤلاء التأثير بالزهد الهندي أو النصراني ، والرغبة عن الدنيا ، وعصيان نداء الفطرة ، والغرام بالمبتدعات ، واتهام النزعات العقلية ...

وكان العرب على عهد الرسالة يرون أنفسهم أرجح من الروم واليهود عقلاً ، وأقوى خلقاً ، وأقدر على أعباء الحياة وخدمة المثل العليا .

وذكر القرآن الكريم رأى العرب في أنفسهم : ﴿إِنَّ كَانُوا لِيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنْ عَدْنَا ذَكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخَلَّصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)﴾ .

وعلى أية حال فإن العرب كانوا أصلح لنزول الرسالة فيهم ، وما كانوا قط أعجز إنسانية من الروم والفرس ، ولا كان هذا التخلف السحيق بينهم وبين غيرهم من الناس ..

وقد حملوا الإسلام باقتدار ، وأحسنوا تبليغه إلى الدولتين الكبيرتين في عهد الخلافة الراشدة ، فلما اشتباكوا في قتال مع عدوهم كان تنامي حماسهم وتسانده إخائهم مكملاً لقلة العدد ، ولم يكن السيف دون السيف ولا الخيل دون الخيل ..

وجريدة الفرس سلاحاً لا تعرفه العرب هو الفيلة ، ولكن سرعان ما احتلال المسلمين على الإيقاع بها فترت مذعورة ترمي من فوق ظهرها ..

أما اليوم فلا تستطيع الموازنة بين التقدم المدني والعسكري عندنا ... . وعند غيرنا !! إن كل علم يطوى مسافة هذا التخلف هو من أركان الدين ، وفرض العادات العينية والكافائية .

وهو أولى من نوافل العبادة ومسائل الخلاف التي برع فيها الفارغون واشتغل بها المتنطعون !!

---

(١) سورة الصافات ١٦٧ - ١٧٠ .

## مرتبة أخرى من المعرفة الدينية

ما قررناه في الفصل السابق كان عن النصاب الأدنى للمعرفة الدينية التي يحصلها المسلم العادى ، بيد أن الأمة الإسلامية لها شأن آخر ، ذلك أنها تحمل رسالة عالمية تشمل الزمان كله والمكان كله ...

فالمسلمون مكلفوون بهداية الفكر الإنساني ، والقلب الإنساني والواقع الإنساني في كل موقع من دنيا الناس ، وهل يستطيع ذلك جاهل بقضايا الفكر والقلب والواقع ؟ وهل ينجح في ذلك غافل عن سنن الله في الأنفس والأفاق ، محجوب عن الأسرار والقوى التي أودعها الله بين يديه ومن خلفه ؟

إن عالمية الرسالة تكلف أمتنا كثيراً كثيرة ، وقد نهض الصحابة والتابعون بهذا العبء ، فكانوا امتداداً لإشعاع النبوة الخاتمة ، ثم أخذ الرجال الكبار يقولون شيئاً فشيئاً حتى كادت الأمة تصاب بالعمق ...

وتعاركت البيوتات العربية على الجاه والمال ، والإمارة والوزارة ، حتى استخفت حقائق ما كان يجوز أن تستخف !

ولنتتساءل أولاً : ما القوى التي اعترضت الإسلام أول ظهوره ؟ وماذا عرض لها على اختلاف الليل والنهر ؟ وماذا كان موقف المسلمين منها على ما جدّ لها من أحوال ؟

إن الوثنية العربية تلاشت في أرجاء الجزيرة على عهد النبي نفسه ، وعادت لها صحوة الموت بعد انتقاله - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى ولكن أصحابه وخلفاءه أخمدوا أنفاسها إلى الأبد !

والمحوسية الفارسية مُرْقُت شر مزق ، وبادت الكسروية وعمّ الإسلام هذه الربع ، فتلاشت المحوسية كما تلاشت الوثنية العربية من قبل ...

وقضى المسلمون على المستعمرات اليهودية داخل الجزيرة بعدما يئسوا من محاسنتها ، لكن اليهود - وهم قلة ماكرة ماهرة - استأنفوا حرب الظلام بعدما خسروا الحرب المكشوفة ، واستطاعوا بمؤامراتهم قتل الخلفاء الثلاثة عمر وعثمان وعلى ..

ولا أدرى لماذا لم يعلق مؤرخونا على الأحداث والفتن التي ذهبت بالرجال الثلاثة ، ويظهروا دور اليهود في استثارة الدهماء ، وإشعال المعارك ، وإبطال جهود المصلحين ؟

على أن اليهود عادوا مرة أخرى بعد أربعة عشر قرنا يصيرون : يالثارات خير ، ويتحدثون عن أرض الميعاد التي كتبوا لهم ! والغريب أن العرب كانوا قد نسوا استخلاف الله لهم في الأرض ، والحق الإلهي لهم في فلسطين فشرعوا يجاوبون اليهود بأنهم أبناء كنعان أخرى عدنان وقططان ، وأن جنسهم أصل ، وأنهم أحق بهذه الأرض ! ألا لعنة الله على الظالمين !!

وبقي الصراع الذي لم تخبو ناره يوما ! الصراع بين الصليبية والإسلام ! ويبدو أن هذا الصراع باق إلى آخر الدهر ! ولنا كلمة عاجلة قبل الخوض فيه : إن الإسلام يكرم المسيح وأمه ، ويقطع دابر من يخدش شرفهما أو يتناولهما بما لا يليق .

ومع حزم الإسلام في تجريد التوحيد من أي لبس ، وتوكيده عبودية الخلائق كلها لله ، فقد قرر أن يعيش في كفه القائلون بالثالوث وبسط حمايته عليهم ، وصان كنائسهم وشعائرهم ، مما سر العداوة الهائلة التي يكنها الصليبيون للإسلام ؟

السرّ السياسي لا يبني ، فإن الروم كانوا دولة النصرانية الكبرى قبل ظهور الإسلام ، والرومان دور من أدوار الصراع الأزلية بين الشرق والغرب ، وقد استطاعوا قبل اعتناقهم للنصرانية أن يبسطوا نفوذهم على أقاليم فيحاء ، ثم رأى قسطنطين أن يشد أعصاب الدولة بالدين الجديد فيجعل النصرانية دين الدولة .

ترى أتنصر الروم أم ترثمت النصرانية ؟ إن وصايا المسيح التي لا تزال مكتوبة « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ... إلخ » فهل أفاد الرومان من هذا الكلام حرفا ؟ أم بقوا جنسا باطشا ظلوما يستهلك الشعوب ويستطوا على كل ما تملك ؟

الحق أن الانتماء إلى المسيح كان غطاء لوحشية مخيفة ، وأن الانتماء إلى المسيح شرف دونه الأوربيون قد يداه وحديثا .. إن القوم كانوا مستعمرين غلاظ الأكباد مقبوхи السيرة ، ولا يزالون كذلك ...

والروم قديما ، والفرنجة حديثا ، وأجناس أخرى تدعى « المسيحية » ، أولئك كلهم

يكرهون الإسلام ، لأنه الدين الذي ردّ هجومهم ووقف طمعهم . فالمسلمون العرب طهّروا الشمال الإفريقي وأسيا الصغرى من الاستعمار الروماني القديم بعد أن ظل نحو ستة قرون !

والمسلمون الترك تعقبوا الأوربيين في أقطارهم الأولى حتى بلغوا أسوار «فيينا» عاصمة «النمسا» ، ومكثوا يقاتلون الأوربيين نحو خمسة قرون ...

من أجل ذلك لا تنتهي ضغائن الأوربيين على محمد ودينه ، بل هم يفقدون اعتدالهم الفكري ، والنزاهة النفسية عندما يتحدثون عن الإسلام ..

وما ذنبنا نحن بإزاء هذا العوج ؟ ذنبنا الحقيقى أننا لم نكن أوفياء لرسالتنا ، ولا جادّين في تعرّف العقبات التي تعرّضها ، ولا طبائع الأجناس التي تقاومها ...

• هل درس آباءنا العلاقات بين البابوات والأباطرة ؟ هل درسوا اختلاف الكنائس شرقها وغربها ، وتابعوا هذا الاختلاف بعد ظهور «مارتن لوثر»<sup>(١)</sup> وانشقاق أتباعه ؟

• هل درسوا التيارات الفكرية ونزاعات الإصلاح الديني والمدنى هناك ؟

• هل يعلمون شيئاً عن عصر الإحياء ، والنقلة الرائعة التي قفزت بها أوروبا من أوج إلى أوج ؟

• هل درسوا السمات الجديدة للفكر الفلسفى الحديث ؟

• هل درسوا النشاط التبشيري بعد كشف الأمريكتين ، وكيف انساحت الكثلكة في أمريكا الجنوبية والبروتستانتية في أمريكا الشمالية ، وفي إستراليا ؟

هل لفت انتباهم توغل الدب الروسي في آسيا مكتسحاً دار الإسلام ، وحاملاً الخراب والكفر إلى المدائن والقرى ؟

هل عرّفوا لماذا قتل الإنجليز ملوكهم مؤمنين حقوقهم الدستورية ؟ ولماذا قامت الثورة الفرنسية بعدئذ معلنة ما يسمى حقوق الإنسان ، وإن كان الفرنسيون أكذب أهل الأرض في الاعتراف لغيرهم بهذه الحقوق ؟

إن الدراسات الكونية والطبيعية نقلت العالم من عهد البارود إلى البخار إلى الكهرباء إلى الذرة إلى عصر الفضاء ، والمسلمون صرّعى ، ثقافات مسمومة ، وسياسات قوامها الجبروت لا تهب حق الحياة والكلام إلا لمن يحرق بين يديها البخور ...

(١) مارتن لوثر .. هو مؤسس العقيدة البروتستانتية «الطائفة الإنجيلية» .

أهذه أمة تحمل رسالة عالمية ؟ إن الذى يبتغى إصلاح الأفكار والمشاعر لا بد أن يدرس الفكر فى كل قطر ، وأن يستبطن أحوال الناس على أمل تزكيتها والتسامى بها .

وما نستحب من اتهام أمتنا بالتفريط إلى حد الخيانة فى خدمة دينها ولغتها وتراثها ويومها وغدرا ! إننا لم نكن نعرف أنفسنا فكيف نعرف غيرنا ؟ وكنا قد نسينا ديننا ! فبم نذكر الآخرين ؟ وفائد الشيء لا يعطيه ..

إن الشريف حسين فى الحرب العالمية الأولى صدق وعد الإنكليز له أن يكون ملك العرب ، ناسيا أن الإنكليز وعدوا مصر بالجلاء عنها سبعين مرة ، وما وفوا لها بوعده ...

لقد كنا فى العلوم المنقولة والمعقولة أصفارا ، وكان تاريخنا الطويل صحراء لا معالم لها .

ولو كنا على مستوى الإسلام لكان لنا باع طويل فى كل فن ، ولزاحمنا بالمناقب فى كل الكشف المادية والأدبية والعلمية التى هديت إليها الفطرة بعد سياحات يسيرة أو شاقة .

والغريب أن ناسا من جلدتنا لا يزالون باسم الدين يريدون استبقاء قيود التخلف والضياع ..

إن ذلك يؤكّد الحاجة إلى علماء بحور ، بحور في جميع المعارف الإنسانية ، لا فارق بين معقول ومنقول ، ولا بين ماديات وأدبيات ، ولا بين غيبيات ومحسوسات .

وظيفة أولئك العلماء هى أولا : تخريج ذوى الأنصبة المحدودة التى أشرنا إليها فى الفصل السابق ، والتى تمثل المستوى الأدنى لرجل الشارع كما يقولون ، أو للمسلم العادى .

ثانيا : النظر فى أساليب الدعوة العالمية وطرق شرح الإسلام خارج أرضه ، ورد الشبهات التى مردّ أعداؤه على ترديدها ، وتوارثوا الشغب بها على الرسالة الخاتمة .

ويؤلمنا أن هناك أزمة مخيبة فى علماء الدين واللغة ، وأن بقاياهم تنقرض دون عوض ظاهر .

وقد كان أولئك العلماء كثرة في العصور المتقدمة ، وما ضارهم أن الحكومات تنكرت لهم ، بل كان ذلك في نظر الجماهير شرفهم الباذخ ، ثم بدأوا يقلون كماً وكيفاً .

ثم جاء عصر المتأخرین من الفقهاء ، وكانوا دون من سبقهم وعيًا وذكاء ، يغلب عليهم الضيق والاستيعاب اللغطي .

وأخيراً جاء دور أنصاف العلماء ، وهم قوم لهم في كتب الدين قراءات مبتورة ، لا تميز غثاً من سمين ، ولا تعرف أصلًا من دخيل ، وقد اقتحموا أبواب الدعوة والفتوى وأحدثوا فوضى شديدة . . .

هذا مفسر للقرآن يقول : إن آية **(لا إكراه في الدين)**<sup>(١)</sup> منسوبة . . !! ويضى في عماه لينسخ عشرات ومئات من آيات القرآن الكريم كلها محكمة . . !

وهذا متحدث في السنة يقول : إن حديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله » على ظاهره ، وهو جاهل ، ولم يقل أحد من العلماء إن هذا الحديث على ظاهره ، بل قالوا : هذا عموم أريد به خصوص ، وكلمة الناس تعنى قوماً معينين شرحتهم أوائل سورة براءة . .

وهذا متحدث في العقيدة يقول : إن وصف الله بأنه واجب الوجود بدعة ! قلت له كلمة واجب الوجود ليست من أسماء الله الحسنى فهذه الأسماء توقيفية من الشارع . . لكن وصف الله بها فيه ملحوظ جميل ، إن القمر جسم مظلم ، ونوره بالليل هو من انعكاس ضوء الشمس على سطحه ، كذلك الكائنات كلها لا وجود لها من ذاتها ، وإنما وجودها من ذات الله الذي منحها الحياة والبقاء ، فهو مصدر إيجادها وإندادها ، وله وحده الوجود من ذاته . .

قال : هذا كلام الفلسفه ، وهو بدعة وكل بدعة ضلاله ، قلت له : لا تسُوّين عدو وصديق ، هناك فلاسفة ملحدة ، وهناك من عرفوا الله . . !

لكن هذا المتكلم يستبيح دمك إذا مضيت في مناقشته !  
أي بلاء يقع فيه العلم الديني إذا كان رجال التفسير والحديث والعقيدة من هذا النوع الهابط .

---

(١) البقرة ٢٥٦ .

لذلك قلت : إننا فقراء إلى علماء من طراز رفيع ، والقطط الثقافي الذي حل بتاريخنا من عدة قرون أتاح للاستعمار أن يصنع بنا الدواهي ! لقد دق أبوابنا ، والجهل العام أخذ بخناقنا ، في علوم الدين وفي علوم الدنيا على سواء ..

نعم جاء أحفاد الرومان وأبناء الصليبيين هذه المرة ، وتفوقهم كاسح في علوم كثيرة ، ولم تقدر الحماسة العاجزة على صدّ تيارهم ، فوقف ماريشال «النبي» في مدينة القدس ، يقول : اليوم انتهت الحرب الصليبية ! ووقف القائد الفرنسي في دمشق أمام قبر صلاح الدين يقول في تبجيح : ها .... قد عدنا يا صلاح الدين .... !

وما صلح به أمر المسلمين أولاً هو العلم الصحيح والحكم الراشد ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ..

وقد نتج عن قصورنا العلمي ما مكّن الغزو الثقافي من مهاجمة عقائidنا وشرائعنا بطرق مختلفة نعالجها فيما يلى ...

\* \* \*

## جيل يذهب ضحية العجز والغدر

بين يدى كتاب مدرسى مقرر على طلاب الثانوية العامة فى دولة إسلامية عريقة ، وثبتت على غلاف الكتاب أنه لجميع الشعب الذى تريد نيل «البكالوريا» .

طالعت فى هذا الكتاب الموضوع الذى يهمنى ويهتم كل مسلم ، موضوع «الإيمان بالله واليوم الآخر» وشعرت بغضنه المؤلف ينقض أساس هذا الإيمان . و يجعل منه حكاية أسطورية من مخلفات ماضٍ قليل الوعى . . . !

وتساءلت : هل تضليل الألوف من أبنائنا على هذا النحو جريمة فردية ؟ أعنى : هل هذا المؤلف ملحد يريد نشر فكره لرغبة خاصة لديه وحده ؟

أم أنه يخدم جهات تريد تحرير نشاء خرب القلب ، جامع الهوى ، فتقرر هذا الكتاب على كل شاب يريد الالتحاق بالجامعة ليطمئن الاستعمار الثقافى بشقيقه الشيوعى والصليبي على مستقبله فى بلادنا ؟

أضحكنى زعم المؤلف أن الإيمان بالأخرة تصدع لما اكتشف «كوبرنيكى» أن الشمس لا الأرض مركز الكون ! وأن الأمر على خلاف ما تعتقد الكنيسة !

قلت : ما صلة الآخرة بهذا الكشف الفلكى ؟ ولماذا يأس الناس من عودتهم إلى الله ، لأن الأرض هى التى تدور حول الشمس لا العكس ؟ هذا الربط العلمى العظيم يشبه القول بأن أنف أبي الهول تحطم لأن ملكة إنجلترا أخبت ولدا ذكرًا !!

إن الكنيسة تخطئ وتصيب ، وهى فوج زعمها أن الشمس تدور حول الأرض لم تعتمد على وحى سماوى ، بل كانت تتبع رأى «أرسطو» ، وقد خالف «أرسطو» فى هذا الزعم «أристتا خوس الساموسى» مؤكدا أن الأرض هى التى تدور حول الشمس . . .

فليختلف فلاسفة اليونان وكهنة «الكنائس» ، فى هذا الأمر ما شاءوا ، ما علاقة ذلك بجعل اليوم الآخر خرافه ؟ لكن هذا هو الفكر العلمى عند أهل الإلحاد .

ومضى المؤلف يقول : إن قضية الآخرة انهارت بعد ظهور نظرية التطور ، وثبتت أن

الإنسان من سلالة القرود ! وهو يرى أنه أشرف للإنسان أن يكون من سلالة الحيوانات ، فهو خير له من أن يكون من أبناء القتلة ...

ولنذكر عبارات المؤلف الفيلسوف بنصها - قبل التعليق على أوهامه التي يحسبها علما (!) يقول : في العصور الوسطى نظرت الكنيسة إلى الإله على أنه أشبه ما يكون بسيد يرى الخدم الذين يعملون في أرضه ، وهو حرفي أن يطلب منهم مغادرة الأرض ساعة يشاء ، وأن يطلب منهم «الحساب» كذلك .

الله خلق الإنسان وميّزه عن باقي المخلوقات ، وسخر له جميع ما في الكون ، وهو الذي يحدد نهايته عندما يريد .

إلا أن هذا الموقف تعرض لصعوبات ، بسبب بعض الاكتشافات العلمية (!) .

أ - إن اكتشاف كروية الأرض ، ودورانها حول الشمس مع كواكب أخرى من طرف (غاليلي) ومن قبله (كوبرنيك) أضعف من موقف الكنيسة التي كانت ترى أن الأرض ثابتة . وهي مركز الكون . وأن الإنسان كائن ممتاز ، سخرت له جميع الكائنات الأخرى !

عندما قال (غاليلي) بدوران الأرض ، اعتبرت الكنيسة هذا الموقف منافياً للدين ، بل خطراً عليه ، لأنَّه يفقد الإنسان الامتياز الذي منحه الله إليه ، ولم تتردد الكنيسة في الحكم على (غاليلي) بالموت .

ب - الصعوبة الثانية التي تعرض لها الموقف الديني ، كانت على يد (دارون) الذي جاء بنظرية التطور . ولقد وصلت نظرية التطور إلى النتيجة الآتية : وهي أن لا فرق بين الإنسان والحيوان إلا من حيث الدرجة لا من حيث النوع : ويجب أن نقبل أن يكون أجدادنا قردة ! بل إن (دارون) يدعو إلى الافتخار بهؤلاء الأجداد لأن الانساب للحيوان - كما يقول (دارون) - أفضل من الانساب إلى الإنسان الذي يقتل أخيه الإنسان بدون مسوغ .

إذن لم يُعد الإنسان في نظر (دارون) كائناً ممتازاً ، بل أصبح مجرد كائن يحتل رتبة متقدمة في سلم التطور .

وهذا يتنافي بوضوح مع الدين الذي يرى أن الله ميّز - منذ بدء الخليقة - بين الإنسان وبين الكائنات الأخرى .

ج - إن علم الاجتماع وهو أحد العلوم التي استقلت عن الفلسفة ، يؤكد لنا حقيقة موضوعية وهو أن الإنسان ولد البيئة وأن جميع ما يأخذ به من أفكار ومعتقدات ليست نهائية ومطلقة ؛ لأنها تختلف من مجتمع لآخر ، ومن عصر لآخر . فما قد تعتقد جماعة ، قد ترفضه جماعة أخرى .

د - وهناك صعوبة أخرى واجهها الموقف الديني بعد اكتشاف التحليل النفسي . إن التحليل النفسي يؤكد لنا أن أفكارنا ومعتقداتنا ليست مطلقة . بل هي نتيجة لعوامل خفية ، أو لا شعورية .

فإذا جأ البعض إلى الدين ، فما ذلك إلا ليعبروا عن رغبات مكبوتة ، وكان يمكن لهم أن يلجأوا إلى وسيلة أخرى للتعبير عن هذه الرغبات ، فالتمسك بالدين ليس إلا مظهرا خاصاً لعوامل لا شعورية ، ويرى (فرويد) أن هذه العوامل تكون في الغالب عوامل جنسية . هذه أقوال متباينة جُمعت على استقراء لخلق صعوبات عقلية أمام الإيمان باليوم الآخر ، أو اللقاء المختوم مع الإله الذي خلقنا أول مرة .

وقد حاولت عبنا أن أفهم منها ما يريد المؤلف فعجزت ، خذ مثلاً كلامه عن علم النفس : إن «فرويد» يرى الغريزة الجنسية الأساس الفذ للسلوك البشري أجمع ! وقد رأت باحثة أخرى أن غريزة الأكل أولى بهذه الصفة فهى التي تستهلك أعمار البشر ! وترهق أعصابهم بطالبيها ، ورأى باحث ثالث أن غريزة «الشعور الإيجابي بالذات» من وراء الكفاح الرهيب على ظهر الأرض ..

ثم تخاطي علم النفس نظرية الغرائز «المكروجل» ، وتحدث عن دعائم أخرى للسلوك الإنساني ، لا نشرحها هنا ..

والذي ألحظه أن الناس متفاوتون في الطباع ، وأن هناك من يهيم بالنساء ، ومن يهيم بحب المال وطلب الثراء ، ومن يضحي بكل شيء طلباً للظهور والرياء !!

وقد عرض على «الأفغاني» الزواج فأبى ، وعاش «ابن تيمية» أعزب ، وكذلك كان «أبو مسلم الخراساني» ، وكل من هؤلاء كان له شأن يغطيه !

وقد تكون الغريزة الجنسية شديدة الوطأة ، لكن عرامها<sup>(١)</sup> أو هزالتها لا علاقة له بعقيدة «المصير» أو البعث والجزاء ، كما يزعم هذا المؤلف ..

(١) عرامها : شدتها .

وننتقل إلى علم الاجتماع والباحثين فيه ، ومنهم التائه والراشد ، والبصير والضرير ، هل إذا قال أحد هؤلاء : إن الدين ظاهرة اجتماعية ، فإن كلمته تصير حكما فصلا ليس بالهزل ؟ إن الدين حقيقة عقلية ، وخلقية ، وعلاقة قائمة بين الناس ورب الناس .

عن أي دين يتحدث هذا المؤلف ، أو ينقل عن المحدثين ؟ عن عبادة الأحجار أو عبادة الأبقار ، أو عن تصور الألوهية وفق شائعات غامضة وأقوال متناقضة كبعض الأديان السماوية التي حرفاها بعض من يدينون بها ؟

إن التحقيق العلمي لا يعني المؤلف ، إن ما يشدّ انتباهـه ، هو وصف المتدينين بأنه ينفّسون عن رغبات جنسية ! .

سبحان الله ، هل الذين أجهزوا على الاستعمار الروماني والفارسي قديما كانوا صرعى كبت جنسى ؟ ما أحرج العالم اليوم إلى هذا الكبت !

### الإلحاد.. مرض

نخلص إلى قضية التطور كما يشرحها «دارون» ! يرى الشيخ «نسم الجسر» في كتابه الجليل : «قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن» أن «دارون» مؤمن بالله وأن نشاطه الفكري يدور حول : هل صدر العالم عن الله بصورته المعاصرة ؟ أم أنه صدر عنه في صورة أدنى ، ثم صعد في سلم الارتقاء إلى ما نراه الآن ؟؟

ولم يقدم «دارون» إجابة حاسمة في الموضوع الذي عالجه ، لأن هناك حلقات مفقودة تجعل نظرية النشوء والارتقاء محاولة مبتورة ، زد على ذلك أن تلامذته الأقربين نقضوا الكثير من مقدماته ، مما جعل الفكر الدارويني ينحسر ويتراجع !

في بأى منطق علمي يسوق المؤلف لشباب الثانوية العامة فكر دارون على أنه حقيقة علمية مؤكدة ، وأنه يفهم من هذا الفكر أن الإنسان تراب فقط ، والتراب ينتهي ويتلاشى فلا بعث ولا جزاء .

في أي معمل كيماوي أو مرصد فلكي ثبت أن الروح خرافـة ، وأن النفس الإنسانية بخصائصها العالية عـرض عابر ، أو وهم لا بقاء له ..

لَا رِيبَ أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ مِنْ تُرْبَةَ هَذِهِ الْأَرْضِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾<sup>(١)</sup>.

ونحن نشهد نبات الأرض يتحول في جسمونا إلى لحم ودم ، فمن يحوّله كذلك ؟ من يحوّله إلى خلايا ذات وظائف مذهلة ؟ كيف يتصور أن الروح هي الأخرى حفنة تراب ، وأن الشعور والتفكير والعاطفة والذاكرة والخيال بعض الطين المنتشر في أرضنا ؟ إن لدى بعض الناس جنونا في إرسال كلمات موغلة في الكذب ، قال لي أحدهم : إن العلم بدأ يخلق الأطفال في الأنابيب ! قلت : كيف ؟ إن الطبيب يجئ بحيوان منوى - لم يخلقها يقينا - ويضمها إلى بويضة من الأنثى - لم يخلقها يقينا - ، ويضع ذلك في مخبار لمدة عشر ساعات ، أو أكثر قليلا ، ثم يغرسه بعد ذلك في الرحم ، ليبقى في جسم المرأة تسعة شهور ، هي مراحل الحمل المعتمدة حيث يصنع أحسن الخالقين الجنين ، وتتم بعدئذ الولادة المعتمدة ! ما الذي خلقه العلم ؟ ! إن الكفر كالجنون فنون .. !

وهذه قصة ملحد آخر دخل المجلس وهو يقول : أنا عائد بعد ما درست للطلاب أن المادة لا تفنى ولا تستحدث !

قلت له : إنني سمعت هذا الكلام وأنا طالب ، وأحسب أنه الآن قد ظهر زيفه !

قال : كلا ، هذا هو العلم !

قلت : إذا كنت أنا وأنت قد يمين فأين كنا من مائة عام ؟ ما أظنين إلا حادثين بالميلاد !

قال : مادتنا قديمة ، لعلنا كنا ترابا في مكان ما من الأرض ، قطرات ماء في مكان ما من البحار أو الأنهار ، أما ميلادنا فليس إلا تغيرا في صورة الوجود !

قلت : وأرواحنا وخصائصنا الفكرية والعاطفية ، إنني أحس بأنها محدثة يقينا !

قال : الأفكار والمشاعر ليست إلا تفاعلات مادية لا قيمة لها ... والروح خرافية !

قلت : فلأصدق جدلا أن ما حدث هو تحولات في مادة قديمة ، وليس إيجادا من عدم ، لكن من الم Howell ؟

(١) سورة طه ٥٥ .

من الذى حول التراب الحقير إلى بصل وجرجير ، ثم إلى قردة وحمير ، ثم إلى  
هذا الإنسان الخطير ؟

إن هذا التحويل يحتاج إلى مؤهلات رفيعة القدر !

قال : مَاذَا تَعْنِي ؟

قلت : على جانب وجهي أذنان بهما أجهزة استقبال معقدة ، وفي الوجه عينان بهما أجهزة تصوير ، وتحميس وانعكاس واعتداال ، وهذا المخ الغريب ! إنه «كمبيوتر» أو حاسب ، يهيمن بأسلوب ساحر على شبكة أعصاب ، تضبط الجسد كله .. وهذه المضخة الماصة الكابسة في القلب ، تدفع الدم وتستقبله بانتظام ، ثم ألا ترى هذه الكلى ؟ إنها إذا تعطلت ذهبنا إلى جهاز كبير يعالج الفشل الكلوى بعناء !

من صنع هذا كله؟

قال : الطسعة ذكرة !

قلت ما أشبهك بشخص وقف أمام قصر منيف ثم أخذ يقول : هذه نافذة ذكية لأنها اختارت مكاناً يستقبل الضوء ، وهذه شرفة عبقرية ، لأنها اختارت مكاناً يستقبل الهواء ، وهذا سقف فنان ، لأنه اختيار ارتفاعاً يسمح بدخول السكان .. وهكذا وزع صفات المهندس المنشئ على الخشب والرخام والزجاج .. إلخ .

اسمع أيها الرفيق ، إن حمار الحكيم أذكي منه ، لقد ألقى الحكيم على طلابه درساً مثلثاً ، فرورو أن حماره أنشد هذين البيتَين :

قال حمار الحكيم يوماً  
لو أنصف الدهر كنت أركب  
فإنني جاهل بـ سبيط  
وصاحب بي جهله مركب

إن الظن بأن الإلحاد فرط معرفة ، أو زيادة ذكاء - كما يتوهם المغفلون - لا أساس له ، إن الإلحاد مرض نفسى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كَبُرُّ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾<sup>(١)</sup>

٥٦ (١) سورة غافر

وزنادقة العرب حين يرددون ما يقوله العلمانيون ، أو الماديون ، يقومون بنوع خبيث من التدليس في النقل والعرض ، فقد تابعت كلام بعض الضائقيين بالدين ، والكافرين برجاله ، فوجدت لهم عذرا !!

هذا رجل ذكي نشأ في جنوب آسيا ، أو شرقها حيث يُعبد «بودا» أو «براهما» ، فعاف فكره أن ينحني لصنم ، أو يبتسم لبقرة ، ولو كانت ضاحكة ، وأعلن أنه بعيد عن الدين ، وكافر بالإله المعهود بينهم ! فهل ينقل كلامه على أنه تمُّد على الدين كلَّه ، وكفران برب العالمين .. ؟

وإذا كان رجال الكنيسة في العصور الوسطى ، قد رأوا أن الأرض ثابتة ، وهي مركز الكون وأن الشمس تدور حولها ، وإذا كانوا قد ابتدعوا من قبل ومن بعد أساطير في العقيدة والسلوك ، فهل الرافضون لهذه الكهانات كفار بعيسي وإنجيله والوحى ومنزله والدين وربه ؟؟

إنهم أقرب إلى الفطرة من رجال الدين أنفسهم ، والكفر بالطاغوت ذريعة إلى الإيمان بالله ، ونحن - المسلمين - أعرف الناس بعيسي ، وبما أتاه الله من حكمة ﴿ولَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جَعَلْتُكُمْ بِالْحُكْمَةِ وَلَا يَبْيَنُ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (١)

وقد تدبرت كلمات لـ «أنشتين» تحدث فيها عن إيمانه بالله ، وعن إعجابه العميق بصنعه ، وعن استشراف فؤاده لعظمته وهو يشهد آثار إبداعه وحكمته ، فأحسست أن هذا العالم الذكي مؤمن بالله الحق .

وأحسست أنه يدور - وهو لا يدرى - حول الآيات القرآنية في وصف الله تبارك اسمه : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَهْلٍ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُّ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعْكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢) .

(١) سورة الزخرف ٦٣، ٦٤ .

(٢) سورة الحديد ٤ .

والرجل أذكى من أن يخلط بين الكون ومكونه ، والخلق وخالقه ، بيد أنه رفض بقوة الإيمان بإله من النوع الذى يعرض رسمه فى معابد الغرب ، إله مثقل بصفات العجز أو الغفلة ، ومن ثم فهو يعتزل هذا الإله ، وينأى عنه !

ولذلك كان التدليس المفضوح أن ينقل مؤلف الفلسفة للثانوية العامة عن «أنشتين» أنه كافر بالله ، أو ما يفيد إنكاره لوجوده ! قال : «عندما نتساءل : هل الإله موجود أو غير موجود ؟ فإن جوابنا على السؤال يرتبط بالمعنى الذى نعطيه لكلمة إله ، وهذا ما أكدته «أنشتين» عندما سأله أحد الصحافيين ذات مرة : هل تؤمن بوجود الإله ؟ فأجاب : حدد لي أولاً ماذا تعنى بكلمة إله ، وبعد ذلك سأقول لك إذا كنت أؤمن بوجود الإله أو لا أؤمن به .

والجدل الذى ينشأ عادة بين من يقول بوجود الإله وبين من ينفي هذا الوجود ينتهى إلى جدل «بيزنطى» لأن كلاً منها يعطى مفهوماً خاصاً لكلمة إله .

لذلك فإن الإجماع على وجود الإله ليس دليلاً كافياً ، على أن الإله موجود فعلاً . فالإجماع قد يكون إجماعاً ظاهرياً .

وقد عرف الفكر البشري إجماعاً على خطأ ، وهو أن الأرض ثابتة . وهى مركز الكون ، فالإجماع على القول بثبوت الأرض لم يمنع أن الأرض كانت تدور حتى عندما كان هناك إجماع على غير ذلك » .

بهذا التدليس فى النقل ، والكذب فى التعليق يتناول المؤلف «الحقيقة العظمى» فى الفكر البشري ، ثم يطوّح بها فى مهاوى الخرافية دونما اكتتراث ..

ثم يضى فى تخير أقوال تخدم غرضه ، وتوهن ما لا يعجبه من آراء !

وظاهر من السياق كله ، أن الغاية المنشودة تضليل الشباب المسلم ، وإفهمه أن الدين وهم ، وأن الإلحاد هو منطق العلم ، واتجاه العقلاء ..

مسكين هذا الشباب الذى لا راعى له ..

قد يكون من العقل الكفر بالهة اخترعها الخرافيون ، وقد يكون من العقل ازدراء الآراء التى يرسلها الكهنة دون سند أو برهان ، فهل من العقل إنكار الإله الحق بديع السموات والأرض ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، وأحكم كل ما أوجد من الذرة إلى الجرة ؟

إن محاولة انتزاع شعرة من جلد إصبع في القدم ، تجعل المُخ يرسل صيحات ألم متتابعة ويبعث على حشد أسباب الدفاع ، فهل المصادفات الموهومة هي التي خلقت هذا الجهاز العصبي الرهيب ؟

إن للاحتمالات قانوناً ينفي نفيًا قاطعاً كل دعوى بأن شيئاً ما تخلق بطريق المصادفة .

ثم إن قانون العلة يحكم أفكارنا كلها ، فلماذا نرفض أن يقع شيء ما دون سبب أو دون فاعل ؟ فإذا اتصل الأمر بخلق السموات والأرض جاء من يزعم أن هذا الوجود تم بلا فاعل ولا سبب ؟ ﴿اللَّهُ خَالقُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَبِيلٌ﴾ (٦٢) له مقايد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴿فُلْ أَفْغِرْ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيْهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (٦٣) .

والغريب أن مؤلف «الفلسفة لطلاب البكالوريا بجميع فروعها» يقول إن هذا البرهان يصطدم بصعوبة كبيرة عرفت باسم «مشكلة الشر» لماذا وجد الشر ؟ كيف يمكن أن نعتقد بوجود إله قادر ، وخبير ، ونعتقد في الوقت نفسه بوجود الشر ؟ لماذا لا يزيل الشر ؟

إن هذه الأسئلة الطفولية ذكرتني بقصة طريفة ، فقد وضعت اختباراً لأحد الصفوف الدراسية ، وبيدو أن أحد الطلاب لم يكن مستعداً فخرج يقول : لو كان الأستاذ رجلاً صالحًا كما يزعمون ما وضع هذه الأسئلة الصعبة !

إن الطالب البليد أنكر صفة الصلاح فقط ، ولو كان فيلسوفاً على النحو الذي رأينا لأنكر وجودي كله !!

الله يقول عن ذاته وعن عمله : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴿﴾ (٢) .

(١) سورة الزمر ٦٢، ٦٣، ٦٤ .

(٢) سورة الملك ٢، ١ .

ويقول : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تَرْجِعُونَ ﴾<sup>(١)</sup> ، فهل نقول له : ما دمت تختبرنا فستنكر وجودك ؟ !!

أهذه هي الصعوبة الكبرى التي تصطدم بها أدلة الوجود على إله قادر حكيم ؟ تلك - ونقولها ضجرين - هي عبقرية الإلحاد الذي يغزو بلادنا ويشارك في توجيهه الشرق الشيوعي والغرب الصليبي على سواء . . .

### مسئوليّة المسلمين تجاه الإلحاد

الواقع أننا - نحن المسلمين - المسؤولون الأوائل عن ظهور هذا الإلحاد في بلاده ، وعن مصايب الإنسانية عامة به ثم عن اكتواتنا بناره بعد ذلك . . . ! فلولا تقاعسنا عن أداء رسالتنا الكبرى ، ما كانت المعركة بين العلم والدين ، وما استفحـل خطر الإلحاد على هذا النحو المزعج ، وما استشرت المذاهب المادية وقتـكت بالجماهير كما نرى . . .

كان لدينا ما يقنـع العقل المطلع المستكشف ، وكان لدينا ما يشـعـب الطبيعة البشرية المتشوـفة إلى الرضا ، وكان لدينا ما يوفـر الكرامة الفردية والاجتماعية لـإنسان نفـخ الله فيه من روحـه ، فهو يبغـضـ الهوان والإهـانـة . . .

لكـنـا جـهـلـنـا ، أو تـجـاهـلـنـا وـمـضـيـنـا فـى طـرـيقـ آخر ، أحـيـيـنـا فـيـه مـساـوىـ أـهـلـ الـكـتـابـ السـابـقـينـ .

إن الله يقول لنبيه محمد ﷺ : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾<sup>(٢)</sup> والمهمـةـ واضـحةـ ، فـغاـيةـ الرـسـالـةـ اـسـتـنـقاـذـ النـاسـ مـنـ ظـلـمـاتـ الـفـوـضـىـ وـالـجـهـالـةـ وـالـفـسـادـ وـالـاستـبـدـادـ إـلـىـ آـفـاقـ أـزـكـىـ وـأـسـمـىـ . . .

والرسـولـ لا يـحـيـاـ لـلـدـهـ كـلـهـ ، وإنـاـ تـقـومـ أـمـتـهـ بـعـمـلـهـ بـعـدـ مـوـتـهـ ، ولـذـلـكـ يـقـولـ اللهـ : ﴿ ثُمَّ أُرْثَنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾<sup>(٣)</sup> أيـ أنـ مـهـمـةـ الـأـمـةـ إـعلـانـ حـربـ عـلـىـ الـظـلـامـ حـيـثـ كـانـ ، بـالـعـلـمـ يـحـارـبـ الـجـهـلـ ، وـبـالـعـدـلـ يـحـارـبـ الـظـلـمـ ، وـبـالـنـظـامـ تـحـارـبـ الـفـوـضـىـ ، وهـكـذـا . . .

(١) سورة الأنبياء ٣٥ .

(٢) سورة إبراهيم ١ .

(٣) سورة فاطر ٣٢ .

لكن أمتنا - عفا الله عنها - اعتراها إغماء ، ولا أقول موت ، فلم تؤد الوظيفة المنوطة بها ، وذهلت عن عالمية الرسالة التي كلفت بأدائها ، وحسبت أن الإسلام نظام داخلي لها وحدها فقبعت وراء حدودها ، تحيا وفق ما يتاح لها من حياة ، وتتقز أردية الإسلام التي لفتها الأقدار بها التوارى سوءاتها ، وما زالت كذلك حتى وثبت خصومها عليها ، ليلغوا أولا شريعتها ، ثم لينقضوا بنيان العقيدة التي تقوم عليها ..

أين خلفاء محمد ، لا أقول ليخرجوا العالم من الظلم إلى النور ، بل ليخرجوا أمتهم من الظلم إلى النور !

إن الإلحاد يتحدى ، وله الحق ، فقد خلا الجحوله ، والعلم الديني والتطبيق الديني غير مؤهلين للنصر بما يحملان من جرائم الضعف والعجز ..

إن المذاهب المادية تستغل أخطاء الفكر الديني في إحراز انتصارات كبيرة وتستهوي الناس بما تقدم من حلول سريعة لمشكلاتهم على حين يتصرف المتدینون بالتعقيد ، وضعف الإحساس بمعاناة الناس .

والقرآن الكريم يصف البشرية المصابة بهذا التدين وصفا يجعلها أنزل رتبة من الذين لم يتدينوا أصلا : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحُكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أَوْتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بِغَايَا بَيِّنَهُمْ﴾ (١) .

البغى ، وقسوة القلب ، إيثار الشكل ، وتجاهل الأركان ، وغير ذلك من الأمراض النفسية هوّن من قيمة الدين وأثره ..

وعندما يخدم المتدینون الاستبداد السياسي ويجدون قاعدة الشورى ، فإن الباب سوف ينفتح للديمقراطية تسوّي بين الطاهر والعاهر .

وعندما يعيشون في كنف ذوى الشراء ، ولا يبالون من أين يكسبون ، ولا فيم ينفقون ، ولا يتسائلون عن الحق المعلوم ، أخرج أم لم يخرج ، فإن الباب ينفتح لماركسية تكفر بالله ، وبالإنسان معا ..

(١) سورة البقرة ٢١٣ .

وعندما ينظرون ببلاده إلى الغريزة الجنسية ، ولا يسأرون إلى توفير مهادها الحلال ثم تتضافر جهودهم لحماية الأسرة ، فإن الحرام سيكون الجواب الحتم !

إن المتدينين من قديم - ولا يزالون إلى الآن - يتعشرون في قضيائهما خلقية ، واجتماعية ، وسياسية كثيرة ، بل إن تصوراتهم الثقافية موضع دهشة .. فيوجد من يؤلف ضد دوران الأرض حول الشمس ، ويفيد موقف الكنيسة في العصور الوسطى ، ويدعى مع ذلك أنه سلفي ! ويوجد من يأمر التلامذة بتخریق صور الأحياء في كتبهم ، لأن التصوير محرم ، ويوجد من يهاجم كون الأمة مصدر السلطة ، ويوجد من يحسب إقام الصلاة مفينا عن تعلم الصناعات ، ويوجد من يعيش مع أعداء الإسلام في القرن الرابع ، يهاجمهم وينال منهم ، ولا يدرى شيئاً عن أعداء الإسلام في هذا القرن !

ألا يهدى هذا كله لإلحاد مدمر ؟؟

بعد عشرين سنة من بدء الوحي حذر الله الأمة الإسلامية أن تسري إليها أمراض أهل الكتاب ، فيقتل إيمانهم وسلكهم كما اقتل إيمان اليهود والنصارى من قبل ، قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَأْنَ لِلّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخُشَّعْ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّهِ وَمَا نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ فَقُسْطَ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسَقُونَ ﴾ (١) .

وأمراض التدين المنحرف تتشابه على مر العصور ، جرثومتها الأولى ، جفاف الشعور ، وضيق التفكير ، وقسوة القلب ، والانسلاخ العام من الفطرة ، والتعلق الشديد بالمراسم ، والصلف بمعرفة الحق ، والميل إلى سوء الظن ومعاملة الخطئين بجبروت .

وتلك كلها آفات ينكرها الدين ، ولا يعد أصحابها على شيء مما بلغت عباداتهم ... !

وقد ذكرنا كيف بدأ الانحراف في تاريخنا بانفصال الحكم عن العلم ، وحدوث فجوة أو جفوة بين الحكام والعلماء ... إلا أن انفصالاً آخر وقع في ميدان العلم

(١) سورة الحديد ١٦ .

نفسه ، بين رجال الشريعة ورجال التربية ، انتهى بجعل الأخلاق علماً نظرياً أو أدباً ثانوياً ! وجعل العبادات والمعاملات ، عادات موروثة ، وتقالييد متبعة ! وبذلك تقطعت الصلات بين الأمة والدولة ، ثم بين الأمة بعضها مع البعض الآخر ، وابتعد الجميع عن روح الإسلام .

والأم لا تقوم بهذا التأكيل في روابطها الأولى ، بله أن تؤدي رسالة عظيمة ...  
وأتعرض هنا لقضية واحدة : هل الدين قاس على الخطئين ، يبيت لهم العقاب ويتربيص بهم الدوائر ، ويسعى للخلاص منهم ؟؟ أم له موقف أحنى وأرعى بغية تألفهم واستصلاحهم ؟

إن عيسى بن مرريم لم يكن يشجع الزناة حين جاءواله بأمرأة عاشرة كى يرجمها  
فقال : « من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم لترجمها ... »

إنه كان أولاً يستبشر سيرة نفر من علماء اليهود يشتتهون أن يروا الخطئ مطروحاً  
للعقاب مفضوها بين الناس ، إنهم - بهذه الشهوة - ليسوا أفضل من الزانية .

وكان ثانياً يريد إعطاء العاشر فرصة يستعيد فيها رسله ، ويصلح نفسه ، فمهمة  
الدين إذا رأى عاثراً أن يعينه على النهوض ، لا أن يتقدم لإلجهاز عليه .

وعيسى في هذا شبيه بمحمد - عليهم جميعاً السلام - الذي كان يلقن المقر بالزنا  
كلمات الرجوع والنجاة من الموت ..

ولسنا بتاتاً نلغى وظائف الشرطة والقضاة ، أو نهون من شرائع الحدود والقصاص ..  
فالقانون الخلقي باق ، والقانون الجنائي باق ، وكلاهما له نطاقه الذي يعمل فيه ،  
وكلاهما ضرورة اجتماعية ...

إننا نريد أن ننفي عن الدين تهمة القسوة ، متذكرين مع ذلك قول الشاعر :

فليقس أحياناً على من يرحم فقسماً ليزدجروا ومن يك راحما  
والناس معادن ، وللمعدن الواحد أحوال يصفو فيها ويذكر ، وسنة صاحب الرسالة  
الخالدة أن الإمام يخطئ في العفو خبر من أن يخطئ في العقاب ...

ولينظر المسلم معى فى هذه الآثار : جاء فى الصحيح عن أبي أمامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وكان من أهل الصفة - قال : بينما أنا قاعد مع رسول الله فى المسجد جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، إنى أصبت حداً فأقمه علىٰ ، فسكت عنه رسول الله ، ثم قال : يارسول الله إنى أصبت حداً فأقمه علىٰ ، قالها الرجل ثلاث مرات ، وأقيمت الصلاة ، فلما انصرف تبعه الرجل ! قال أبو أمامة : فاتبعته أنظر ما يرد عليه رسول الله - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، فقال : يا رسول الله إنى أصبت حداً فأقمه علىٰ ، فقال له : ألسنت حين خرجمت من بيتك قد توضأت فأحسنت الوضوء ؟ قال : بلى ! قال : وشهدت الصلاة ؟ قال : نعم ! قال : إن الله قد غفر لك حدرك ...

وروى عن أبي الدرداء أنه أتى له بامرأة سرقت - ليتحقق معها ويعاقبها - فقال لها أبو الدرداء : سرقت ؟ قولى : لا .. !

وهو تلقين غريب ! ولكننى يشير إلى طبيعة الدين فى درء الحدود والتنفيذ عن الخاطئين . وقرأت أن مرتدًا سبق إلى المؤمن لينال عقوبته ، فرأى المؤمن أن يحاوره ، قال له : كلامك معى لا يضرك وقد ينفعك ، ومن الخير أن تزداد بصيرة فى أمرك ، فربما بقىتك على ما أنت عليه بعد هذا الحوار ، وربما تكشف لك ما يرجعك إلى ما كنت فيه ، والحاzman لا يضيع فرصة عرضت .

وإليك نصّ الحوار كله نثبته لما فيه منفائدة :

« يروى أن المؤمن أتى بمرتد عن الإسلام إلى النصرانية فقال له : أخبرنا عن الشيء الذى أوحشك عن ديننا بعد أنسك واستيحاشك ما كنت عليه ، فإن وجدت عندنا دواء دائلك تعالجت به . وإن أخطأك الشفاء ونبأ بك عن دائلك الدواء كنت قد أعتذرت ، ولم ترجع على نفسك بلائمة . فإن قتلناك قتلناك بحكم الشريعة ، وترجع أنت فى نفسك إلى الاستبصار والثقة ، وتعلم أنك لم تقصر فى اجتهادك ، ولم تفرط فى الدخول فى باب الحزن . »

قال المرتد : أوحشنى ما رأيت من كثرة الاختلاف فيكم .

قال المؤمن : لنا اختلافان : أحدهما كالاختلاف فى الأذان والإقامة ، وتكبير الجناز والتشهد ، وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ، ووجوه القراءات ، ووجوه الفتيا ،

وهذا ليس باختلاف ، إنما هو تحبير وسعة وتحفيف من المخنة . فمن أذن مثنى وأقام مثنى لم يخطئ . ومن أذن مثنى وأقام فرادى لم يخطئ . ولا يتعارضون ولا يتعابون بذلك . والاختلاف الآخر : كنحو اختلفنا فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث مع اجتماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فإن كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت له هذا الكتاب ، فقد ينبغي أن يكون اللفظ لجميع التوراة والإنجيل متفقا على تأويله كما يكون متفقا على تنزيله ، ولا يكون بين جميع اليهود والنصارى اختلاف فى شيء من التأويلات ، وينبغي لك ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلف فى تأويلها من لفظها ، ولو شاء الله أن ينزل كتبه و يجعل كلام أنبيائه ورثة رسله لا تحتاج إلى تفسير لفعل ، ولكن لم نر شيئا من أمر الدين والدنيا وقع على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت المخنة والبلوى ، وذهبت المسابقة والمنافسة ، ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بني الله أمر الدنيا .

فقال المرتد : أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله وأن المسيح عبد الله ، وأنك أمير المؤمنين حقا .

لو كانت للMuslimين خلافة راشدة تتعاون فى ظلها الكفايات العلمية والتشريعية والتربية ، ما وجد الإلحاد الدينى أو السياسى أو الاقتصادي مسربا يدلل منه إلينا ولا إلى غيرنا ...

لكن الأمر اغتصبه من لا يستحقه فوقيعه فتن تدع الخlim حيران .

لما أفضت الخلافة إلى بنى العباس ، وملك الأمر عبد الله السفاح جاءه السيد الحميري ينشد هذه الأبيات :

دونكموها يا بني هاشم	فجددوا ميراثها الطامسا
دونكموها فالبسوا تاجها	لا تعدموا منكم لها لابسا
خلافة الله وسلطانه	ومنبر كان لكم دارسا
قدس ساحتكم ساسة	لم يتركوا رطبا ولا يابسا
لو خير المنبر فرسانه	ما اختار إلا منكم فارسا

والملك لو شور فى ساسة ما اختار إلا منكم سائسا  
لم يُبق عبد الله بالشام من آل أبي العاص امرءا عاطسا  
فلست من أن تملكونها إلى مهبط عيسى ، منكم آيسا ...

قال الرواية : فأمر الخليفة له بمائة ألف درهم ، وقال له سل حوايجك ! فقال الحميري : ترضى عن « سليمان بن حبيب » وتوليه الأهواز ! فأمر الخليفة بجعل « سليمان » أميرا على الأهواز ..

هكذا - باسم الإسلام - نهب مال الأمة ، ونيلت مناصبها الكبرى ، وقى الشاعر أن تظل الخلافة في عائلة العباس إلى نزول عيسى بن مريم ... وقد خيب الله الأمل ! وزالت الخلافة المذكورة بعد ما عانى الإسلام منها البلاء الشديد ...

والمهم أن بعض المحدثين في الإسلام لا يدرى شيئاً عن اختيار الخليفة ، ومراقبته ، ولا عن أسلوب الشورى ومن يستشارون ولا عن المال العام وكيف ينفق ... وكل ما يعرفه أن يهاجم الديمقراطية مثلاً باسم الإسلام المظلوم ...

إن شباب الجيل المعاصر يعاني من فتنه مزدوجة ، فالحضارنة الحديثة تعرض عليه مذاهب براقة تخفي السم في الدسم ! والمحسوبون على الإسلام يعرضون عليه أفكاراً مجوجة ، ويطلبون منه أن يستسلم إليها ، لأنها من الله ورسوله ، وهم كذبة !

الرواد الجدد يقولون له : نريد حكومة تخضع للأمة إن أحسنت استبقتها ، وإن أساءت استبعدتها ولا كرامة ، لابد للحكومة أن تستشيرنا وتخضع لما نريد .

والمحدثون الإسلاميون يقولون له : الشورى لا تلزم حاكما ، ولوه أن يمضى وفق ما يرى غير أبه لتوجيه المستشارين !

إن الكلام الأول أشبه بما كان عليه الأمر أيام الخلافة الراشدة ! أما كلام الإسلاميين فهو امتداد لمنطق الخلافة غير الراشدة التي ابتلى المسلمين بها دهرا ...  
وعندما ينهزم المنطق الإسلامي المزعوم ، ويبدأ حكم الشعب تتغير مقررات ، وتنقض مسلمات !

والسبب ؟؟ غباء محدثينا وعرضهم باسم الإسلام كلاماً يأبه الإسلام .

وقل مثل هذا في قضيَا المال ، والعلم والمرأة . وال الحرب ، والحرية ... إلخ .

إذا كان أولو النهى يشكون من المظالم التي تقع باسم الحرية ، والسرقات التي تقع باسم الاشتراكية فكم نشكو نحن من الجهالات والسخافات التي تقع باسم الدين !!

والسنة النبوية مهرب رحب لمزيد العبث ، وناشرى الفوضى ..!

فهناك أحاديث موضوعة مرت ، وأحاديث ضعيفة قوية ، وأحاديث صحيحة حرفت عن موضعها ، وسيقت في غير محلها ... !

وإذا كنا أحيانا نسمع شكوى من الإسراف في استعمال الدواء ، وقدرة الجمهور على شرائه وسوء التصرف فيه ، فإن الشكوى نفسها يمكن توكيدها بالنسبة إلى أحاديث كثيرة تقع بين أصابع الدهماء فيخوضون فيها ببلاهة ويسئلون أكثر ما يحسنون !

ولم الدهماء وحدهم ؟

لقد سمعت عالما يخطب فيورد في ذكرى المعراج حديث « دنا الجبار فتدلى » ... !!

فبادرت أقول له : إن الذي نزل بالوحى هو جبريل لا غير ، أسمعت ؟ قال : إننى نقلت روایة البخاری ! قلت له : القرآن قاطع فيما ذكره لك : ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾<sup>(١)</sup> والذى رأه محمد عليه الصلاة والسلام هو جبريل كما جاء في سورة أخرى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup> ذي قُوَّةٍ عند ذي العرش مكين<sup>(٣)</sup> ﴿مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ﴾<sup>(٤)</sup> وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ<sup>(٥)</sup> وَلَقَدْ رَأَهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ<sup>(٦)</sup> !!

قال : وروایة البخاری ؟ قلت صاحبها تلميذه مسلم بأدب العلماء ، فقال إن الحديث رواه شريك عن أنس بن مالك فزاد ونقص وقدم وأخر أى أن السياق غير مضبوط ، ولا يعمل به !!

وقد ظهر ناس يتسمون أهل الحديث لا يعلمون عن القرآن شيئا ، وبضاعتهم في فقه السنة مزاجة ، فيهم شبهة من فكر الظاهرية ، ومزاج الخوارج ، وفيهم جمود يغطونه بدعوى الاتّباع ، وفيهم جراءة على أئمة الفقه الكبار ، وفيهم اعتداد بأنفسهم

(٢) سورة التكوير ١٩ - ٢٣ .

(١) سورة الشعرا ١٩٣ ، ١٩٤ .

وكانهم المتكلمون باسم الله ورسوله ! وفيهم سوء ظن بالآخرين واشتهاء للنيل منهم  
والحقيقة فيهم . . .

وقد كثر هؤلاء في هذه الأيام العجاف ، ولو لا علمي بأن الجاهل عدو نفسه لقلت :  
إن الاستعمار هو الذي يحركهم ، وينطقهم ، وينشئ لهم جماعات في أقطار  
متباعدة ، لأنهم مهرة في تقطيع وحدة الأمة !

قد يما كان العمل بالنوصوص صبغة المجتمع كله ، وكانت نسبة الجامعين للقرآن  
الكريم لا تعدو ١٠ % في عصر الصحابة نفسه ، أما العارفون للأحاديث فنسبتهم أقل .  
وما يحتاج المسلم في حياته إلا إلى بضع عشرات من أحاديث الأحاداد ..

إن ما تواتر من العقائد والعبادات والأخلاق هو قوام الإسلام وحياة الأمة ، وما زاد  
يحتاج إليه متخصصون في أعمال أخرى ، ولا يجوز أن يزاحم الأركان به أن يطغى  
عليها ..

وقد لاحظت - وأنا في الجزائر - أن الفرض الأول في النشاط العام هو إعادة اللغة  
العربية إلى المكانة التي أزيلها عنها الاستعمار الفرنسي ، فقد ظل - عليه اللعنة - قرنا  
وثلث قرن يحمل على اللغة العربية حتى اضمحلت وكادت تزول من لغة التخاطب  
في الشارع الجزائري .

وكان لابد من جهاد زراعي تتجو به الأمة من أي حصار اقتصادي يجعلها ترکع من  
أجل الرغيف ! ..

وكان لا بد من جهاد إداري يمنع قتل مصالح الجماهير في أدرج المكاتب ، أو بين  
أصابع الملائين من الموظفين الكسالي ..

وكان لا بد من جهاد اجتماعي يقتلع العوائد الفرنسية ، ويبني العلاقات بين  
الجنسين على العفاف .

وكان وكان ..

في زحام هذه الواجبات تنظر إلى شباب ينتسب إلى السنة النبوية يقاتل لغایات

أخرى ! يقول : الأعراس فيها غناء وموسيقى ، والعرس الإسلامي يقوم على ثلاثة  
القرآن . . . !!

قلت من أفتى بهذا ؟

ولما كان مذهب مالك شائعا في البلاد ، والمصلون يسلّلون أيديهم وهم وقوف ،  
فقد شنوا حربا على السدل ، وقالوا يجب القبض .

قلت : من أفتى بهذا ؟

وحدث في مدینتين بينهما مئات الأميال أن سُئلتُ عن حديث أن موسى فَقَاعِين  
عَزْرَائِيلَ لَمَا جَاءَ لِقَبْضِ رُوحِهِ ! لَقَدْ اسْتَغْرَبْتُ هَذَا التَّوْافُقُ ، وَقَلَّتْ : أَهُو تَوَارِدُ خَوَاطِرَ أَمْ  
تَنْفِيزُ مَخْطَطٍ ؟؟

وَعَجَّبْتُ أَنْ يَتَقَهَّرَ الْجَهَادُ الْعُلْمَىُّ وَالْإِدَارِىُّ وَالاجْتِمَاعِىُّ مِنْ بُؤْرَةِ الشَّعُورِ إِلَى  
حَاشِيَةِ الشَّعُورِ إِلَى شَبَهِ الشَّعُورِ وَأَنْ يَحْلِ محلَّهُ لَغْطٌ فِي أَحْكَامِ دِينِيَّةِ ثَانِيَّةِ !  
وَنَهَرَتِ الْخَائِصِينَ فِي هَذَا اللَّغُو .. وَقَلَّتْ فِي إِيْجَازٍ : جَنِبُوا أَعْرَاسَكُمُ الْمَجُونَ  
وَالتَّكَشُّفَ وَاسْمَعُوا غَنَاءً أَوْ مُوسِيقِيًّا إِنْ شَئْتُمْ .

أَمَا وَضْعُ الْيَدِينَ فِي الصَّلَاةِ فَهِيَ شَرْحٌ تَسْتَحِبُّ فَقْطًا ، وَمَنْ تَرَكَهَا عَامِدًا أَوْ نَاسِيًّا فَلَا  
سَهُو عَلَيْهِ .

وَأَمَّا الْحَدِيثُ فَمَا حَاجَتُكُمْ إِلَيْهِ ؟ لَا يَفِيدُ عَقِيدةً وَلَا يَكْلُفُ بَعْلَمًا ! وَمَا يَسْأَلُكُمُ اللَّهُ  
عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! وَإِنِّي أَرْفَضُ رِبْطَ مُسْتَقْبَلِ الْإِسْلَامِ وَأُمَّتِهِ تَارِيَةً بِحَدِيثِ سُقُوطِ الذَّبَابِ  
فِي الْإِنَاءِ ، وَتَارِيَةً بِحَدِيثِ خَلْعِ عَيْنِ مَلِكِ الْمَوْتِ .

هَذِهِ أَحَادِيثٌ تَبْحَثُ وَفَقَ المُقْرَراتُ الْأَصْوَلِيَّةُ فِي دَلَالَتِ الْسَّنَدِ وَالْمُتَنِّ ، فَقَدْ يَصْحُّ  
الْحَدِيثُ سَنَدًا وَيَرْفَضُ مَتَنًا ، لَعْلَةً قَادِحَةً ، وَقَدْ رَفَضَ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ حَدِيثَ رِضَاعِ  
الْكَبَّارِ مَعَ صَحَّتِهِ ، فَدَعُوا هَذِهِ الْقَضَايَا وَالْتَّفَتُوا لِدِينِكُمْ .. !

إِنَّ الْغَايَةَ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ تَزْكِيَّةُ النَّفْسِ ، وَرَفْعُ مَسْتَوَاهَا الْمَادِيُّ وَالْأَدِبِيُّ بِرُؤْيَا الْمَجَدِ  
الْإِلَهِيُّ ، وَقِيَامُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ ! وَالْإِسْلَامُ هُوَ النَّهْجُ الْمُضِيُّ الْفَذُ الْمُقْرَرُ  
لِهَذِهِ الْحَقَّاتِ ، وَيُؤْسِفَنِي أَنْ بَعْضَ النَّاسِ يَزِيغُونَ عَنْهُ مِنْ حِيثِ لَا يَشْعُرُونَ !!

لقد سألنى طالب جامعى عن قوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢٦) ويبيقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (١) فقلت له المعنى واضح ، العالم كله سوف يتلاشى ، وينتهى وجوده ، فأمانى الخلود سراب خادع ، وللبشر بعد هذا الهلاك العام صحوة يواجهون فيها ما قدموا لأنفسهم عندما كانوا يختبرون على ظهر الأرض ، على نحو ما ، قال الشاعر :

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها      إلا التي كان قبل الموت يبنيها . . .

واستطردت أقول للطالب : وجه الله هو الباقي ، وهو ما ينبغي أن نقصده بأعمالنا دون تعويل على غرض آخر من مال ، أو جاه ، أو طلب ولاء ، أو ابتغاء مكانة ، كما قال تبارك اسمه : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (٢)

وفوجئت بالطالب يقول لي : ما عن هذا أسأل ! أنا أسأل عن تفسير كلمة «الوجه» ، فنظرت للطالب بغضب بلغ حد المقت ، ولكنني كظمت غيظي ، وأجبته ببرود : سؤال لا معنى له ، إن لغات البشر كلها أعجز وأقل من أن تصف الجلال الإلهي ، ونحن مكلفو أن نؤمن بالله وأسمائه الحسنى ، دون تقدير فيما يستحيل إدراكه ، إن الله ليس كمثله كشيء ، إن الذبابة التي تطن حولي لا تدرى ولا تستطيع أن تدرى شيئاً مما يدور في رأسي ، وما أخطئه بقلمى ، كذلك أنا وغيرى بالنسبة إلى الذات العليا ، بل نحن أدنى وأضئل . . .

يا بنى : لا تؤذوا الإسلام باسم الإسلام ! مرؤوا على هذه الآيات وأشباهها كما يمر العلماء بالضوء ، ينتفعون به ولا يعرفون كنهه مهما حاولوا .

إن الانشغال بهذه البحوث لون من البطالة المقنعة واستحياء المعارك القدية هو تجديد معارك الهزيمة ! وشغل المسلمين بما يضرهم ويفيد عدوهم !

إن الآيات المحكمات هن أم الكتاب ، فما الذي يصرفكم عن فقهها والعمل بها ، والدخول فى متاهات لا معنى لها ؟ أرجو ألا أسمع هذا السؤال أبدا .

(١) سورة الرحمن ٢٦، ٢٧ .

(٢) سورة الإنسان ٩ .

## إنهم يتعصّبون ضدنا.. فهل نتراجع؟!!

تدّاعت الخواطر في نفسي ، وأنا أنظر إلى تمثال الإمبراطور «قسطنطين» في مدينة «قسطنطينية» أى في بلد يحمل اسم الإسكندر اليوناني ،وهاً أَنذا أعمل في بلد يحمل اسم القيصر الروماني .

وقد كان في الإمكان أن يظل الوجود الأوروبي في بلادنا دهراً لولا أن الإسلام طهر القارتين القدبيتين آسيا وإفريقيا من الجنس الزاحف ، ورده من حيث جاء ..

ومع ذلك فقد بقيت الأسماء القدبية لها دلالتها ولها إيحاؤها ! إننا لم نفكّر في تغييرها ولكن الأوروبيين لم يحاولوا تغيير أنفسهم والتوبة من مظالمهم ، كأنهم يرون أن الأرض كلها كلاًً مباح لهم ، وأن أهلهَا كانوا عبيد الأجداد فليبقوا عبيداً للأحفاد .. !!

إن هذا الإصرار ازداد حدةً بعد أن اعتنق الروم النصرانية ، وبدل أن يغيروا طباعهم مع التعاليم الجديدة ، لبسوا جلد الحمل الوديع على حقيقة ذئب مفترس ، وهيهات أن تنطلي الخدعة ، فإن الأنبياء الحادة والوعاء الرهيب فضحا طبيعة الوحش المختفى ! وأيّقن الناس أن الروم لم يتّنصروا وإنما تروّمت النصرانية !

وأن الأوروبيين إجمالاً يريدون الاستمرار في سياسة الاغتصاب ، والاجتياح ، وأنهم ما آمنوا قط بحكاية «من ضررك على خدك الأمين فأدر له الأيسر» بل على العكس لقد انطلقا يلطمون الوجه عن يمين ويسار ، فمن غضب لنفسه قطعوا عنقه ! باسم الله ! ..

وتتضى المغالطة إلى آخر الشوط ، فالرومان يقاتلون المسلمين في «مؤتة» ، يستنفرونهم إلى «تبوك» ، أى يقاتلون العرب في أرضهم وفوق ترابهم ، ثم يقولون : الإسلام دين عنف ، ونحن إنما ندافع عن حقنا !

أى حق ؟ وكان الفرنسيون من ثلاثة سنة يقاتلون الجزائريين في مدنهم وقرائهم ، فإذا زجرهم ناصح قالوا له : صه ! هذه شئوننا الداخلية ! لماذا تدخل أنفك فيما لا يعنيك ؟ الجزائر جزء من التراب الفرنسي !! ماذا نقول ؟ إن الاستعمار لن يدع

صفاقة ولا وقاحتة إلى آخر الدهر حتى نرغمه نحن على تركها ، بالمنطق الذي لا يفهم غيره ... !!

عجب أن ينسى المظلوم ، وأن يذكر الظالم ! عجيب أن يتشغل صاحب الحق بلا شيء ، وأن يفرغ صاحب الباطل لسلبه كل شيء ! إنني أنظر إلى الأحزاب الخاصة بالإسلام من وثنين وكتابيين فأجد عداوتها تزيد ولا تنقص ، وأجد الخطط المرسومة لمحوه ومحو أمته تُنفَّذ بدهاء وخبث ! وفي الوقت الذي نتجافي فيه ونتساكس ، يتساند هؤلاء ضدنا ويتصالحون على تقويتنا ... !

اليهود الذين وثبوا على فلسطين يعلنون بغضائهم لمحمد وكتابه ، ورفضهم لنبوته وأمته ! ويرون أنهم أولى بالأرض والسماء منه ومن أتباعه ! والغاية من إقامة « إسرائيل » محو عقيدة وجنس ، وإثبات عقيدة أخرى وجنس آخر ، الغاية محو تاريخ ظل خمسة عشر قرنا ، ووصل تاريخ جديد بقبائل العبرانيين الأولى بعد رمي الإسلام وأمته في البحر ... .

وفي سبيل هذه الغاية الرهيبة يشد الصليبيون أزر المعتدين ، ويدعونهم بسبيل من المال لا ينقطع ، وأنواع من التأييد السياسي والعسكري لا تنتهي ! إن اليد اليهودية لا تصفق وحدها ، وإنما تعاونها اليد الصليبية ، ومفروض أن تلتقي اليدان على عنق الإسلام لتصهره ، وتورده الحتف !

تُرى أتسكت الشيوعية الكارهة للإسلام وتقف بعيداً؟ كلا ، إنها تشارك في الاعتراف بإسرائيل ، وترى الفرصة سانحة كى تضم أرضاً إسلامية أخرى إلى أرض الاتحاد السوفيتى التى تكون أغلبها من دار الإسلام المستباحة ..

وهكذا أقبلت أفواج الذئاب من كل ناحية لتعيث فساداً فى قطيع لا راعى له .. إن الإسلام يمرّ بأسوأ محنة عرضت له خلال تاريخه كله ، وليس أعجب من تجمع أعدائه عليه إلا ذهول أتباعه ، واحتباسهم فى مأربهم ، أو انشغالهم بقضايا لا تسمى ولا تغنى من جوع ....

إنى أفهم حقد الملاحدة على الإسلام ، لأن الإسلام يشغل الناس بربهم ، و يجعل الحياة والممات له ، وأفهم أن يحقد عباد الأصنام والأبقار على الإسلام ، لأن أولئك لا تفكير لهم ولا ضمير ...

أما هذه الضغائن المتوارثة بين أهل الكتاب على الإسلام وأمته ، فداء عياء ،  
وظاهر أن بغي الكتابيين أنكى من جهل الأميين ، وأن أهواء المتعلمين - إذا فسدوا -  
أغلظ وأشنع من مكاييد السذاج ...

حين أرمق المجازر التى تجتاح أبنائنا ، والحرائق التى تلتهم دورهم ، وأرى الموارنة والصهاينة يتسابقون فى تكثير ضحاياها ، وكأنما يحققون أماناتهم فى الدنيا ، أقول إن هؤلاء وأولئك نسوا المثل القائل : «أبغض بغرضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما» إنهم يعتقدون أن هزيمة المسلمين اليوم هى القاضية ، وأنه لن يبقى منهم من يؤسف على ما حدث له أو لأبائه . . . !!

لابأس ، يجب أن ندفع ضريبة التخلف والفرقة والضعف ، وإن فدح الثمن ! .  
والغيب لله ، فما ندرى أيكون الغد قصاصا لنا ، أم امتدادا لخاتمتنا ؟؟  
على أنه من الخسأة أن تترك المأسى النازلة بنا دون نكير ودون تذكير ! ، وجمع هذه  
المأسى خلال قرون الضعف يحتاج إلى كتب مطولة ، فهل نؤدى واجبنا ؟

أمس القريب كنت في مدينة «خنشلة» الواقعة في أحضان جبال «الأوراس» بالجزائر قال لي صديق : ألا تزور قبور الشهداء ؟ قلت : هذا حق ، هيا بنا ، وفي الطريق أشار إلى خندق مردم ثم همس : كان العمال يحفرون هنا فوجدوا بقايا أدمية ! وتتابع الحفر والتنقيب ، فإذا هيأكل عظمية لألف شهيد احتوتهم هذه المقبرة الجماعية ، ومع عظام الموتى وجدت السلال التي تربطهم والقيود الحديدية التي كانت في معاصمهم !!

إن القتلة حشدوهم هنا ثم حصدوهم بالمدافع الرشاشة ثم أهالوا عليهم التراب  
ليذهبوا مع الأمس الدابر ! وهاجنى الغيظ وأنا أنظر إلى المكان كله ، وأرى أنقاض  
الشباب الغضّ ، والرجلات الباسلة ، ومصارع الجباء الشريفة ، والقلوب المؤمنة بيد  
الأوغاد من صليبي العصر الحديث !

وضحكت بجنون ، وأنا أقول : لقد تركوا السلالس والقيود لأنهم صنعوا الكثير  
الكثير منها للأحرار والموحدين !

ومددت الطرف فإذا صديقى يقول : إن الحكومة نقلت الرفات إلى هذه القبور التى ترى ! وبنـت متحفا يضم الوثائق لمقتل جزء واحد من ألف ألف وخمسة ألاف شهيد قدمتهم الجزائر لتحرير أرضها من فرنسا ابنة الكنيسة البكر كما يسمونها فى أوروبا ..

ولتستعيد المساجد التى حـولـها الفرنسيـون إلى كنائـس حتى تنطلق منها أصوات التكبير والتوحـيد كما كانت منذ شـيدـت ..

ونظرت إلى القبور الجديدة ، فخـيلـ إلىـ أنها سطور مـنسـقة متـدة لأـبيـات قـصـيدة حـزـينة توـحـى بـالـأـسـى والـبـكـاء . غيرـ أنـ إـيمـانـى عـادـنـى عـلـى عـجـلـ ، إنـ الشـهـداءـ أـحـيـاءـ ، وأـرـواـحـهـمـ تـرـدـ أـنـهـارـ الجـنـةـ وـتـأـوـىـ إـلـىـ قـنـادـيلـ مـعـلـقـةـ تـحـتـ العـرـشـ ، ولوـ عـرـضـ عـلـيـهـمـ أـنـ يـعـودـواـ إـلـىـ دـنـيـانـاـ هـذـهـ لـرـفـضـواـ ، ولوـ كـانـواـ عـلـىـ ثـرـاـهـاـ مـلـوكـ !!

لاـ مـكـانـ لـلـحـزـنـ ، يـجـبـ أـنـ أـتـجـلـدـ وـأـنـ أـتـعـلـمـ ، وـأـنـ يـعـرـفـ قـوـمـيـ فـدـاحـةـ ماـ يـدـفـعـونـ ثـمـنـاـ لـتـفـريـطـهـمـ وـضـعـفـهـمـ ، إـنـ مـاـ وـقـعـ فـيـ المـغـرـبـ الـعـرـبـيـ صـورـةـ لـماـ يـقـعـ مـنـ أـيـامـ فـيـ الشـرـقـ الـأـوـسـطـ ، وـجـنـوبـ آـسـياـ حـتـىـ الـفـلـبـينـ ..

إـنـ الـعـالـمـ إـلـاسـلـامـيـ يـضـربـ بـبـيـأسـ ، وـالـجـلـادـونـ طـامـعـونـ فـيـ إـخـمـادـ أـنـفـاسـهـ وـلـذـكـ لـاـ تـدـرـكـهـمـ رـحـمةـ ..

وتذكرت ما نشرته جريدة الراية القطرية عن بعض أسرار «صبرا وشاتيلا» أن أحد رجال الكتاب أدرك شاباً فلسطينياً يافعاً، وكان ساقطاً على الأرض في فوضى المذبحة، فأخذ يتواثب فوق جثمانه بحدائقه الثقيلين حتى أزهق روحه !

لمـ هـذـاـ الحـقـدـ كـلـهـ ؟ـ لـمـ هـذـهـ الـوـحـشـيـةـ كـلـهـاـ ؟ـ

يـبـدوـ أـنـ الجـبـانـ إـذـاـ أـمـنـ عـلـىـ حـيـاتـهـ فـعـلـ كـلـ شـئـ ..

قالـ لـىـ صـاحـبـىـ :ـ أـمـحـزـونـ أـنـتـ لـاـ يـصـيبـ الـمـسـلـمـينـ مـنـ كـوـاـرـثـ فـيـ أـرـجـاءـ الـعـالـمـ ؟ـ قـلـتـ :ـ وـلـمـ لـاـ ؟ـ إـنـ الطـعـنةـ التـىـ تـصـيبـ أـحـدـهـمـ فـيـ الـفـلـبـينـ أـتـأـوـهـ لـهـاـ فـيـ الـقـاهـرـةـ !ـ فـكـيـفـ إـذـاـ اـشـتـعـلتـ النـارـ فـيـ دـارـ الـجـارـ ؟ـ

قالـ :ـ أـتـعـلـمـ مـاـ يـفـلـسـفـ بـهـ رـجـالـ الدـينـ هـذـهـ المـآـسـىـ ؟ـ يـقـولـونـ :ـ إـنـاـ نـرـدـ الصـاعـ صـاعـينـ ،ـ لـمـ فـعـلـهـ السـيـفـ إـلـاسـلـامـيـ قـدـيـماـ بـعـارـضـيـهـ !ـ

قلت : كذبوا والله ، لقد كان الإسلام في عنفوان قوته رحيمًا ، وكما قال «غاستاف لوبيون» : إن العالم لم يعرف فاتحًا أرحم من العرب !

ولو شاء لأباد طائف كبيرة وصغيرة ، وحاشاه أن يفعل ، فما تلك خطته ولا تلك سيرته ! ولو فعل لسكت التاريخ مستكينا كما سكت لإبادة المسلمين في الأندلس ، ولإبادتهم في الشطر الشرقي للاتحاد السوفيتي ، حيث تذوب الأمة الإسلامية في آسيا الشيوعية !

إن المسلمين كانوا وما زالوا أرق أهل الأرض ، ولا يزالون كذلك مابقوا في كل صلاة يرددون هذه العبارة النبوية : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين !

يا صاح ، إن رجال الدين هؤلاء يسترون فشلهم في ترشيد الحضارة الحديثة بإعانته الاستعمار العالمي على ضرب الإسلام .

إن السيف الإسلامي المزعوم اختفى من عدة قرون ، وإنفرد «أهل الكتاب» بالمدينة الحديثة تحاورهم ويحاورونها فماذا حدث ؟ أبعد الدين عن ميدان الحكم ، ثم أبعد عن ميدان المال ، ثم أبعد عن الآداب والفنون ، ثم أبعد عن العلوم الإنسانية ، والعلاقات الجنسية ، والتقاليد الاجتماعية !

إنه - بفضل ما لدى القوم - أبعد عن الحياة كلها ولم يبق له وجود إلا في أيام العطلة ، أو في المناسبات العامة .

وليته بعد هذا الإحباط استكان ، لقد تقدم في ابتسامة صفراء إلى الحكومات الاستعمارية يعرض عليها مساعداته الحميدة ! فكان وراء حملات الفتنة والتدمير التي تتعرض لها شعوب شتى من بينها ، أو في مقدمتها الشعوب الإسلامية ! إننا ننصح الكهنة الذين يمالئون الصهيونية ، ويعيدون المظالم أن يتراجعوا قبل أن يطول ندمهم ، إنهم يهدمون ولا يبنون ، وبدل أن يجتهدوا في إبقاء دينهم بأوروبا ومنع الحضارة الحديثة من محو آخر أثر له حولوا جهدهم كله إلى حرب الإسلام ، وتضليل أهله ... ! جرياً مع المثل الغربي «على وعلى أعدائي» .

بيد أن العرب - قبل كل إنسان - مسئلون عما يقع الآن للإسلام من أحزان ! إن تفرقهم الشائن أيام الحملة الصليبية الأولى هو الذي فتح الطريق إلى القدس وجعل

الجثث أكواها فى البلد المحروب ، وهم اليوم يكررون الخطأ القديم ، بل ضمّوا إليه تقطيع الصفوف وتهين العقيدة ، وتهوين الأخلاق وعربدة الشهوات ..

ومع أننى عربى إلا أنىأشعر بالخجل للمواقف التى وقفها العرب من إخوانهم وسط آسيا وشرقها وجنوبها ... وبدت آخر الأمر فى مشكلة أفغانستان ، إن الدول العربية الضالعة مع روسيا تنكرت لها بل تجاهلتھا فى وضاعة عجيبة ، والدول الباقة قدّمت مساعدات تافهة ، لا تبلغ أبداً مستوى المعركة بين الكفر والإيمان .

إن العرب أنانيون لا يهتمون إلا بأنفسهم وقضائهم ، وتأخيرهم الأخوة الإسلامية عن الجنسية العربية سيجر عليهم العار والنار في الدنيا والآخرة .

ألقى الأستاذ «أحمد بهجت» نوراً على المعركة الأفغانية في الركن العامر الذي يملأه في صفحة الأهرام فقال : لقد تحدث المجاهد الأفغاني عبد ربّ الرسول سياف رئيس الاتحاد الإسلامي لتحرير أفغانستان عن أهمية المعركة التي تدور الآن بين المجاهدين الأفغان وقوات الحكومة العميلة التي تسندها الدبابات الروسية . قال : إننا أمام معركة خطيرة تعنى خسارتها خسارة الإسلام في أفغانستان وفي باكستان نفسها . قال بالنص : «لو انتهى هذا الجهد «لاسمع الله» بفشل المجاهدين فإن باكستان تموت خلال أسبوع . إن الدب الروسي سوف يضغط من الغرب والفييل الهندي سوف يضغط من الشرق ، وسوف تختفى باكستان . » .

شرح المجاهد حقيقة أبعاد المعركة فقال : «إن أمريكا لا تريد بقاء روسيا في أفغانستان ، ولكنها كذلك لا تحتمل قيام حكم إسلامي في أفغانستان ، وعندما اتضاع أن المعركة الدائرة أخذت تسفر عن قيام حكم إسلامي ، بدأوا جميعاً يتداركون الوضع ، وبدأ التنسيق في البحث عن بديل آخر غير مسلم ، وبذلت كتابة سيناريو جديد ، وبرز اسم «ظاهر شاه» والمطلوب في السيناريو الجديد إجهاض الشورة الإسلامية أساساً ، ومن الأمور التي تشير إلى ذلك أن المسلمين لا يدركون خطورة المعركة ولا يعرفون أبعادها ، وبالتالي فإنهم لا يتفاعلون معها كما يجب » .

سئل عبد ربّ الرسول سياف : هل غياب القضية الأفغانية إعلامياً هو السر في عدم التفاعل معها ؟ فقال : «أنا لا ألقى الذنب على غيبة الإعلام الأفغاني عن الساحة العربية والإسلامية ، ولكنني ألقى على غيبة الإعلام العربي الإسلامي عن

ساحات الجهاد . . . » ، وتساءل المجاهد : « لماذا لا يوجد صحفي مسلم يأتي إلينا ويعرض علينا أن نوصله إلى جبهات القتال ليشهد فجر الإسلام من جديد .

إن غزوات المسلمين الأوائل تعيد نفسها في أفغانستان ، وليس هناك مسلم واحد سجل هذه الأحداث !

إن الصحفي في بلادنا الإسلامية يرحل بكاميراته آلاف الأميال ليتابع لاعب كرة يسجل هدفا .. ألا يستطيع هؤلاء الصحفيون تسجيل تدمير عشر دبابات بأيدي مجاهد مؤمن يقف بين رصاص كالمطر ..

أذكر أنني قلت للصحفيين بالرياض كيف تعتبرون أنفسكم صحفيين مسلمين بينما أنتم عالة على أعدائنا فيأخذ أخباركم الإسلامية ؟ قال لي بعضهم : والله أنتم ما تخبروننا عن أوضاعكم وأحوالكم ، وهذا الكلام يشبه من يبعث خطابا إلى مريض في المستشفى يسأله لماذا لا يخبره عن أحواله . أيهما يذهب إلى الآخر السليم يعود المريض أو المريض هو الذي يتبع عليه أن ينهض من فراشه ويذهب إلى السليم ويخبره عن أحواله !

لماذا لا تأتون إلينا ؟ إذا لم تستطعوا الوقوف معنا في خنادق القتال ، فلا أقل من تسجيل موقفنا نحن في الخنادق .. »

أليس عاراً أن نقرأ في صحفنا الإسلامية خبراً عن إسقاط طائرة بأيدي المجاهدين وتحت الخبر تكتب وكالة فرانس برس أو رويتر ؟؟؟

أين اليقظة العربية ؟ أين الافتراض العربي ؟ إن الأخوة الإسلامية مهزومة في هذه القضية الكبيرة ! وانهزمها ليس جديدا ، فقد سبقته خيانات جسيمة في أحوال مشابهة . الواقع أن درجة الإسلام سياسيا وثقافيا . تخضت عن ارتداد ملحوظ في إعلان بعض الأحزاب عن « علمانيتها » وفي رفض حكومات شتى للانتماء الإسلامي ..

ولولا الوجل من علامات الحياة التي ينتفض بها الكيان الإسلامي بين الحين والحين لأعلنت بعض الحكومات العربية اسلامها عن الإسلام جملة وتفصيلا ..

ماذا كسبوا من هذا النفاق ؟ كان الحاج «محمد أمين الحسيني» مفتى فلسطين الأكبر يقود مقاومة إسلامية باسلة ضد اليهود والإنكليز ، نعم كان الوجه الإسلامي سافرا ضد الوجه اليهودي المكشف المتبعج ! كانت صيحة «الله أكبر» تقود المقاومة ، وتنشق بها حناجر المجاهدين الذين ينشدون خير الدنيا والأخرة ..

إن هذه الصيحة هي التي لم يعرف غيرها ثوار الجزائر في مقاتلتهم للاحتلال الفرنسي العقود ، وقد فدحت التضحيات ولكنها حققت النصر ، ودحر الله الصليبية الجديدة ، ولم يكن جند الإسلام سلاح يوم بدأت المعركة ! إلا ما يأخذونه من أيدي أعدائهم .. ثم رأى «عرب الشرق الأوسط» - وبئسما رأوا - أن يدعوا التكبير ، وأن ينحازوا بعيدا عن الإسلام ، وأعلنت جبهة التحرير أنها سوف تقيم يوم تنتصر دولة علمانية ! وتتابعت الخسائر ! وتتابعت الانسحابات ! وأطبقت على الجماهير المسكينة حيرة بالغة .

### الإسلام.. وفلسطين

لقد شعرت بقلق حقيقي على مستقبل فلسطين ! قد تقول : هل جدّ جديد ؟  
وأجيب : كلا وليس أسوأ مما وقع !

مبعث قلقى أنى رأيت الشعور الدينى عند اليهود يقوى ، وعند قومى يخف ، وأن يوم السبت يزداد قداسة على حين تتهاوى شعائر الإسلام فى أقطار شتى ، وأن القوم يتحدثون عن حدودهم التوراتية ونحن لا نعرف آفاقنا القرآنية ! وأن اليهود يلبس قلنسوة صلاته فى أي عاصمة ، ويمضى فى شموخ إلى معبده بينما يتخفف أكثرنا من عباء الصلاة المكتوبة ، وأن التراث عندهم أصالة وعندنا رجعية ! إسرائيل عندهم دين ، وفلسطين عندنا عروبة ! ومعركة تدور على هذه الأسس تشير الفزع فى ضمير المسلم ..

إن أمريكا تؤيد اليهود لأسباب دينية ، وقد كان لورد بلفور<sup>(1)</sup> نصرانيا متھمسا ، ومؤمنا بتعاليم العهد القديم عندما أعطى اليهود حق احتلال فلسطين .. والدول العظمى - وبينها روسيا - التي قالت : خلقت إسرائيل لتبقى ، إنما تتحرك بضغائن ضد العروبة والإسلام ...

وقد تصدر هيئة الأمم فى هذه الأيام قرارا جديدا بتأييد حق العرب فى فلسطين ، أو بتعبير أصرح حق إقامة دولة لهم على جزء من أرضها .. وسيكون القرار كعشرات

(1) وزير خارجية بريطانيا ، وصاحب تصريح بلفور الشهير سنة ١٩١٧ .



غيره حبرا على ورق ، ولن يعود الحق إلى نصابه إلا في حالة واحدة ، أن يعرف العرب الطبيعة الدينية لقضيتهم ومعركتهم ومصيرهم فيردوا على العدون اليهودي بدفاع إسلامي .

إن رأية «العلمانية» لن تكسب خيرا ، فهل نرجع إلى الإسلام عقيدة وجهادا ، لا سياسة وشعارا ؟

لعل أول ما كسبه العرب من تجاهل الإسلام هذا التفرق الشائن الذي سر أعداءهم وأرخص مكانتهم العالمية . إن الإسلام الضمان الوحيد للوجود العربي في هذه الدنيا ، قبل أن يضمن لهم في الآخرة جنة عرضها السموات والأرض .. والعرب عندما يزهدون في الإسلام فسوف يعودون قبائل متحاكدة لا تزن عند الله ولا عند الناس جناح بعوضة ... !

ليس أمم العرب إلا توبة سياسية واجتماعية ، يعرفون بها رسالتهم ، ويبصرون غايتها ، ويسترجعون مجدهم ويكتبون عدوهم ... إن العرب يبلغون ١٥٪ من مجموع الأمة الإسلامية ، إلا أنهم كما قلت في بعض كتبى «دماغ الإسلام وقلبه» إذ الإسلام دين عربي الثقافة والقيادة .

ونجاج الاستعمار في فرض الارتداد عليهم هزيمة بعيدة الأماء رهيبة الآثار ! ونحن موقنون بأن جماهير العرب أوفياء لدينهم حتى الموت ، وأن المراد فرض الإلحاد عليهم بالسلاح ! وتمكين سلطات مغتصبة من خذلان الإسلام في كل ميدان ، وجعل العمل له تهمة ! وجعل العمل ضده باب القبول والترقى !!

والجهد الآن قائم على تجرييدعروبة من الإسلام ، وتجرييد كل قومية أخرى من الانتماء الإسلامي ، وما درى أولئك الغادرون أنهم يحذرون للعرب - بهذا المسلك - مقبرة تواريهم إلى آخر الدهر ...

وقد لاحظت في ركن قصى من النشاط الأدبي أن الطلاب لا يحفظون قصائد تتحدث عن أمجاد الإسلام ، ولا عن أيام الله في تاريخ العرب ..

حتى لو كلفوا بحفظ قصيدة للمتنبي تصف حروب سيف الدولة مع الروم فإن

وأضعى المقرر يتحاشون ذكر الأبيات التي تشير إلى الإسلام ..

ففي قصيدة أبي الطيب المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم     وتأتي على قدر الكرم المكارم  
يحذف عن عدم قول أبي الطيب لسيف الدولة :  
ولست مليكا هازما لنظيره     ولكن الإسلام للشرك هازم !

وتنفيذا لهذه السياسة طُويت قصائد جياشة بالصدق واليقين لشوقى وحافظ ومحرم وغيرهم ، وقد رأيت أن أستنقد من أصابع الضياع قصيدة الشاعر محمود غنيم التي ينشد فيها العرب أن يصحوا ، ويستثير في ضمائرهم نجدة الإسلام ، قال نصر الله وجهه في قصيده : «وقفة على طلل» .

أمسى كلانا يعاافُ الغمض جفناه  
مالى وللنجم يرعنانى وأرعاه  
أواهُ لَوْ أَجْدَتِ الْخَزَنَ أَوَاهُ  
لى فيك يا ليل آهات أرددها  
أهونُ بما فى سبيلِ الحبِّ الْقَاهُ  
لا تخسبنى محبباً يشتكي وصباً  
مجداً تلیداً بآيدينا أضفناه  
إني تذكرت - والذكرى مؤرقه  
تجده كالطير مقصوصاً جناه  
أئنى اتجهت إلى الإسلام فى بلد  
فأشبَحْتْ توارى فى زوابعه  
ويح العروبة كان الكون مسرحها  
كم صرفتنا يدَ كنا نصرفها  
ويح العروبة كان الكون مسرحها  
ويات يملِكُنا شغبَ ملْكُناه  
كم بالعراق وكِم بالهند دُو شجنِ  
شكَا فرَدَتِ الأهرام شَكْواه  
بنى العمومه إنَ الْقُرْحَ مَسْكُمُو  
ومَسَنَا ، نَحْنُ فِي الْآلام أشْبَاهُ  
يا أهلَ يشربُ أدمَتْ مُقلتَيْ يَدَهُ  
بذريةٌ تَسْأَلُ المَصْرَى جَدَوَاهُ  
الدينُ والضادُ من مغناكم انبعثا  
فطريقاً الشَّرْقَ أَقْصَاهُ وَأَدْنَاهُ  
لسنا ند لكم أيماننا صلة  
لكنما هوَ دَيْنَ ما قَضَيْناهُ  
هلْ كانَ دِينُ ابنِ عَدْنَانَ سِوى فلق  
شقَ الْوَجْهُ وَلِيلُ الْجَهْلِ يَغْشاهُ

(١) من نصف قرن حلَت بالمدينة المنورة مجاعة ، فأسرعت السفن المصرية محملاً بالقمح إلى نجدة البلد الطيب ..  
والشاعر يرى ذلك بعض ما يجب !

هلْ كَانَ يَتَصَلُّ الْعَهْدَانِ لَوْلَا  
 فَكَلَمَا حَاوَلُوا تَشْوِيهَها شَاهُوا  
 يَكْفِيهِ شَعْبٌ مِنَ الْأَجْدَاثِ أَخْيَاءً  
 إِذَا رَأَى وَلَدَ الْمُوتُورَ أَخَيَاءً  
 مَنْ خَاضَهَا بَاعَ دُنْيَاهُ بِآخِرَاهُ  
 مَا سَاسَهَا قَيْصَرٌ مِنْ قَبْلٍ أَوْ شَاهٌ  
 وَكَيْفَ كَانَتْ لَهُمْ سُفْنٌ وَأَمْوَاهُ  
 مَا لَامِرَى شَرْفٌ إِلَّا بِتَقْوَاهُ  
 فَلَيْسَ لِلنَّفْرِدِ فِيهَا مَا تَمَنَّاهُ  
 أَنَّ السُّلَامَ وَأَنَّ الْعَدْلَ مَغْزَاهُ  
 وَالزَّيْتُ أَدْمَ لَهُ وَالْكَوْخُ مَأْوَاهُ  
 مَنْ بِأَسِيهِ ، وَمُلُوكُ الرَّوْمَ تَخْشَاهُ  
 شِعَارُنَا الْمَجْدُ يَهُوَانَا وَنَهْوَاهُ  
 فَالشَّرْقُ وَالضَّادُ وَالإِسْلَامُ مَعْنَاهُ  
 وَنَحْنُ كَانَ لَنَا ماضٍ نَسِينَاهُ  
 بِالْأَمْسِ كَانُوا هُنَا مَا بِالْهَمِ تَاهُوا؟  
 فَسَائِلُ الصَّرْحِ : أَيْنَ الْمَجْدُ وَالْجَاهُ؟  
 عَمِّنْ بَنَاهُ ، لِعَلَّ الصَّخْرَ يَنْعَاهُ  
 عَلَّ امْرَءًا مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ تَلْقَاهُ  
 مِنْهُنْ قَاتَ خَطِيبًا فَاغْرَأَهُ  
 كَائِنَى رَاهِبٌ يَغْشِى مُصَلَّاهُ  
 يَوْمًا ، وَأَخْطَأً دَمْعُ الْعَيْنِ مَجْرَاهُ  
 فَحِينَ جَاؤَ زَبْغَدَادَ تَحْرَأَهُ

سَلِ الْخَضَارَةَ مَاضِيهَا وَحَاضِرَهَا  
 هِيَ الْخَنِيفَةُ عَيْنُ اللَّهِ تَكْلُؤُهَا  
 هَلْ تَطْلُبُونَ مِنَ الْمُخْتَارِ مَفْجَزَةً  
 مَنْ وَحْدَ الْعَرَبَ حَتَّىٰ كَانَ وَاتِّرُهُمْ  
 وَكَيْفَ كَانُوا يَدَا فِي الْحَرْبِ وَاحِدَةً  
 وَكَيْفَ سَاسَ رُعَاةَ الْإِبْلِ مَمْلَكَةً  
 وَكَيْفَ كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ وَفَلْسَفَةً  
 سَنُوا الْمُسَاوَةَ لَا عَرَبٌ وَلَا عَجَمٌ  
 وَقَرَرُتْ مِبْدَا الشُّورِيِّ حُكْمَتُهُمْ  
 وَرَحْبَ النَّاسَ بِالإِسْلَامِ حِينَ رَأَوْا  
 يَا مَنْ رَأَى عُمْرًا تَكْسُوهُ بُرْدَتَهُ  
 يَهْتَزُ كَسْرِيَ عَلَى كُرْسِيِّهِ فَرَقَ  
 سَلِ الْمَعَالِيَ عَنَا إِنَّا عَرَبٌ  
 هِيَ الْمُعْرُوبَةُ لَفْظٌ إِنْ نَطَقْتَ بِهِ  
 اسْتَرْشَدَ الْفَرْبُ بِالْمَاضِي فَأَرْشَدَهُ  
 بِاللَّهِ سَلْ خَلْفَ بَحْرِ الرَّوْمَ عَنْ عَرَبٍ  
 فَإِنْ تَرَأَتْ لَكَ الْحَمْرَاءُ عَنْ كَثَبِ  
 وَانْزَلْ دِمْشَقَ وَسَائِلَ صَخْرَ مَسْجِدِهَا  
 وَطَفَ بِبَغْدَادَ وَابْحَثْ فِي مَقَابِرِهَا  
 هَذِي مَعَالِمُ خَرْسَنَ كُلُّ وَاحِدَةٍ  
 إِنِّي لَا شُعُرٌ إِذْ أَغْشِي مَعَالِمَهُمْ  
 اللَّهُ يَعْلَمُ مَا قَلَبَتْ سِيرَتُهُمْ  
 أَيْنَ الرُّشِيدُ وَقَدْ طَافَ الْفَمَامُ بِهِ

شَمْسٌ عَلَيْهِ ، وَلَا بَرْقٌ تَخْطُطُهُ  
 وَنَسْتَمِدُ الْقُوَى مِنْ وَحْيِ ذَكْرَاهُ  
 فَخْرًا ، وَبِطْرَقٍ إِنْ سَاءَ لَهُ مَا هُوَ ؟  
 رَيَاهُ أَدْرُكَ بَنِي قَحْطَانَ رَيَاهُ  
 آثَارُهُ ، طَيْبَ الرَّحْمَنَ مَثْوَاهُ  
 مَا بَالُنَا نَجَدُ الْأَثْرَاكَ تَأْبَاهُ  
 وَكَيْفَ رَاحَ عَلَىٰ مِنْ ضَحَّا يَاهُ  
 عَلَى ابْنِ بَنْتِ ابْنِ بَكْرٍ فَائِدَاهُ  
 نَهْرًا مِنَ الدَّمِ فَوْقَ الْأَرْضِ أَجْرَاهُ  
 قَدْ يَظْلِمُ السَّيْفُ مَنْ خَاتَهُ كَفَاهُ  
 وَمَنْ يَرْمُهُ بِحَدِّ السَّيْفِ أَغْيَاهُ  
 وَرَاهِبُ الدِّيرِ بِاسْمِ الدِّينِ مَوْلَاهُ  
 لِلشَّرْقِ لَا مَحْضَ دِينِ سَنَةُ اللَّهِ  
 كَالنُّخْلِ إِذْ يَتَلَاقَ فِي خَلَابَاهُ  
 وَالْمُسْلِمُونَ - وَإِنْ شَتَوا - رَعَايَاهُ  
 فَامْنَنْ عَلَيْنَا بِرَاعَ أَنْتَ تَرْضَاهُ  
 يَرْعَى بَنِيهِ وَعَيْنُ اللَّهِ تَرْعَاهُ

مُلْكٌ كَمُلْكٍ بَنِي التَّامِيزِ مَا غَرَّتْ  
 ماضِ نَعِيشُ عَلَى أَنْقَاضِهِ أَمَا  
 لَا درَّ امْرَرَى يَطْرَى أَوَّاَلَهُ  
 مَا بَالْ شَمْلٌ بَنِي قَحْطَانَ مُنْصَدِعًا؟  
 عَهْدُ الْخِلَافَةِ فِي الْبَسْفُورِ قَدْ دَرَسَتْ  
 عَرْشَ عَتَيدٍ عَلَى الْأَتْرَاكِ نَعْرَضُهُ  
 أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ فَدَاهُ مُعَاوِيَةُ  
 غَالَ ابْنَ بَنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ثُمَّ عَدَا  
 لَمَّا ابْتَغَى يَدَهَا السَّفَاحُ أَمْهَرَهَا  
 مَا لِلْخِلَافَةِ ذَنَبٌ عِنْدَ شَانِشَهَا  
 الْحُكْمُ يَسْلُسُ بِاسْمِ الدِّينِ جَامِحٌ  
 يَأْرُبُ مَوْلَى لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاصِيَّةُ  
 إِنِّي لَا غَتِيرُ الْإِسْلَامِ جَامِعَةُ  
 أَرْوَاحُنَا تَتَلَاقَ فِي هِ خَافِقَةٍ  
 دَسْتُورُهُ الْوَحْيُ وَالْمُخْتَارُ عَاهِلُهُ  
 لَا هُمْ قَدْ أَصْبَحَتْ أَهْوَاؤُنَا شِيَعَاهُ  
 رَاعٍ يُعِيدُ إِلَى الْإِسْلَامِ سِيرَتَهُ

هذا الأدب الحانى على الإسلام المشيد بأمجاده يجب أن يدرج فى أكفانه .

الأدب الذى يرد للعرب رشدهم ، ويصرهم برسالتهم ، ويحدوهم إلى أدائها لا يجوز أن يحيا ! الأدب المطلوب هو أدب التسالى والجنون . أدب الضياع والإدمان .

الموضوع الأثير الجذاب هو الجنس ، الجريمة ، الضحك ، الدعاية للمجتمعات الأوربية والأمريكية ، كل ما يفصلنا عن ماضينا الإسلامي ، وتاريخنا العريق ...

فهل الأمر كذلك وراء حدودنا؟ إنني أسوق هذه النماذج المتنوعة ليعلم التائرون أين هم في دنيا الناس !

كتب الأستاذ «عبد الله مباشر» في الأهرام هذه الكلمة : «خلال زيارتي لأوروبا ، أتيحت لي فرصة مشاهدة فيلم «الصقر» الذي يلعب دور البطولة فيه الممثل العالمي الإيطالي المولد «فرانكو نирولو» والفيلم من إنتاج يوغسلافيا وتدور أحدهاته أثناء وقوع الصراع (\*) في دائرة الإمبراطورية العثمانية .

الصرب الآن إحدى أهم الجمهوريات التي تتكون منها دولة يوغسلافيا (١) .

والفيلم من البداية للنهاية لا هدف له إلا تشويه صورة الإسلام والمسلمين ، وقصته ببساطة تصور هجوما قام به جنود أتراك إحدى القرى الصربية بعد أن خرج عدد من الرجال للصيد من بينهم البطل ستراهينا «فرانكو نيرولو» ويقتتحم الجنود بيت ستراهينا ويستولون على زوجته الحسناء ، وبعد عودة ستراهينا يحاول استرداد زوجته بأي طريقة . ويواصل بذل المحاولات والجهد حتى يوفق ..

ومشهد البداية يمثل خروج البطل متظياً صهوة جواده مع عدد من الأصدقاء في رحلة صيد ومعه صقره المدرب على اقتناص الفريسة . وبعد أن يغادر هذا العدد من الرجال القرية يبدأ الجنود الأتراك المسلمين في الهجوم عليها وقتل الشيوخ والأطفال واغتصاب النساء والاستيلاء عليهن بما في ذلك زوجة البطل الغائب التي ترتدي ثياباً بيضاء ، وطوال فترة الهجوم والقتال نسمع كلمات وجملًا عربية من بينها «الله أكبر» - «يا الله» .. وكان المخرج ينقل للمشاهد من البداية أن الفضائل والنبل والطهارة من نصيب الصرب ، فالفروسية والصيد من الفضائل والأعمال النبيلة والزى الأبيض رمز للطهارة .. أما الرذائل فهي من نصيب الأتراك المسلمين الذين يهاجمون قرية بعد أن غاب حماتها ، ويقتلون الشيوخ والنساء ويستولون على عدد من النساء ويغتصبون عدداً آخر ..

ثم ينتقل المخرج ليصور لنا مشهدًا للجنود الأتراك مع قائهم الذي يسمى «على» فالقائد يجلس ليدخن الحشيش ، أما الباقيون فإما أنهم يدخلنون مثله أو يتسلون منه الحشيش .. وللحصول على قطعة من الحشيش لا يأس من التوصل والرجاء والركوع .

---

\* (١) ومن المعروف أن الصرب قد انفصلت عن يوغسلافيا وأجرت مذابح رهيبة في مسلمي البوسنة والهرسك انتقاماً من الإسلام والمسلمين .. إلا أن المقالة والكتاب قد صدر قبل هذه الأحداث .

وهكذا ببساطة يصبح كل المسلمين القادة والجنود والناس قتلة ومغتصبى نساء بل وحشashين بلا كرامة .

ويواصل الفيلم رحلته ، حيث يضطر القائد إلى قتل رفيقه غدرا ، وهو ذاهم للقاء ستراهينا .. ومشهد القتل لا يعطى انطباعا واضحأ بالغدر فقط بل يكرس ارتباط الغدر بالخلق الإسلامي ، فالقائد القاتل ، يقتل وهو يقول «أشهد أن لا إله إلا الله» «الله أكبر» ويغمد سيفه في الضحية الأولى .. ثم ينتقل ليغمد سيفه في الضحية الثانية وهو يواصل نفس القول ثم يمسح الدماء من سيفه وهو سعيد مرددا نفس القول ، والخرج يربط عمدا بين القتل والغدر ، وبين الشهادة والتکبير ، حتى ينطبع في ذهن المشاهد هذا الارتباط ، مثلما ارتبط هجوم الأتراك المسلمين على القرية يقتلون أهلها وهم يرددون «الله أكبر» ... .

ويقينا فإن هذا الفيلم ليس العمل الوحيد ، ولن يكون الأخير في سلسلة الأعمال التي تستهدف تشویه صورة الإسلام والمسلمين .

وأمام هذه الحملة التي لم تتوقف يبقى السؤال .. وما العمل؟

هذا دور «الفن» في ضرب الإسلام ، وهناك مثلا من دور «الدبلوماسية» في الهجوم على أرضه ، واستباحة جماهير المؤمنين فوقها ، أنقله من العدد الخاص الذي أصدرته مجلة «روز اليوسف» احتفالا بمرور ثلاثين سنة على حرب التحرير ..

وقد بدأ الكلام بوصف مسلمي الجزائر في مذكرات كتبها بيده «وليام شالر» القنصل العام الأمريكي في الجزائر بين عامي سنة ١٨١٦ ، سنة ١٨٢٤ . والوصف ناضج بأن المسلمين في هذا البلد غاذج حسنة للطيبة وحسن الخلق وبعد عن العدوا .

وندع الحديث للقنصل الأمريكي ... يقول القنصل :

«إن المعلومات التي وصلت إلينا منذ العصور الغابرة تتهم سكان هذا البلد بعدم الاستقرار والخداع ، وهذا الاتهام قد يوجد ما يبرره في الوقت الحاضر ، ولكن هؤلاء السكان أبعد ما يمكنون عن البربرية التي يصف بها البعض الجزائريين ، فإن في سلوكهم لياقة ومحاملاة ، وأنا قد وجدتهم في المعاملات اليومية - دائمًا - مهذبين ومتمدنين وإنسانيين ، وأنا لم أكتشف فيهم حتى أعراض التعصب الديني ، أو الكره للأشخاص الذين يدينون بدين آخر غير دينهم ...

إنهم يدينون بالإسلام ويقومون بكل مواظبة وإخلاص بالواجبات التي يفرضها عليهم دينهم ، ولكن بدون مباهأة أو تصنع ، ولا يضمرون عداوة للأشخاص الذين يسلكون طريقا آخر للحصول على رضا الله ... »

المدهش أن هذا القنصل بقى على حقده القديم ، فلم يفكر فى إصلاح نفسه بعد أن شاهد ما شاهد من سماحة المسلمين واعتدالهم ! إن المواريث الكامنة فيه كانت أعمق شرا ، ومن ثم فقد درس أنجح الخطط لاحتلال الجزائر بعد أن تفقد حصونها ، وعرف نقط الضعف والقوة فيها ... ترى كيف قدر على ذلك ، ومن الذى يسر له هذه الفرصة ؟

يظهر أن المسلمين كانوا يحسبون شعب الولايات المتحدة بريئا من العلل التاريخية الأولى ، وأن ظفره بحريته بعد حرب ضروس مع انجلترا سيجعله كارها للاستبداد والعدوان !

وكان المسلمون سذجا في هذا الظن ! فقد جلد الأميركيان تاريخ الرومان حذوك النعل بالنعل ، ولم يتركوا خطة لضرب العرب والمسلمين إلا سلکوها ...

فلنذكر الوثيقة التي كتبها مثل الولايات المتحدة في الجزائر لإرشاد الهاجمين من وراء البحار على أخطر الطرق وأجدادها . قال :

« .. كان نزول الجنود في جميع الحملات العسكرية التي شنت على مدينة الجزائر من البحر ، يتم في الجانب الشرقي من الخليج ، وهذه بالتأكيد غلطة لا تغتفر ، وتعود إلى جهل بشاطئ البلد وطبوغرافيته ، حيث إن جميع وسائل الدفاع قد تركت في هذه المنطقة ... »

ومن الواضح أن جيشنا يمكنه النزول في خليج « سيدى فرج الجميل » دون أن يجد عقبات تذكر ، ومن هناك يمكنه في مرحلة واحدة أن يصل إلى الهضاب التي تسيطر على موقع قصر الإمبراطور ، وعندئذ سوف لا يجد عائقا في طريقه نحو هذا الحصن والاستيلاء عليه بالقوة ، إما بتسلق أسواره أو بنسفها بالألغام !!

يكشف « شالر » المزيد من هذه المعلومات الخطيرة ويقول : « متى سيطر الجيش على هذا الحصن وثبت مدفعية قوية في الهضاب التي تشرف عليه ، سيطر على الموقف ..

إنزال قوات فى « سيدى فرج » لابد أن يرافقه ظهور قوات بحرية فى وسط الخليج للتمويه على العدو وعقب ذلك تستسلم المدينة أو تؤخذ عنوة .. !! وهذا بالضبط ما فعلته قوات الاحتلال الفرنسية ..

وهكذا يكشف التاريخ أن الولايات المتحدة الأمريكية وكانت دولة ناشئة فى ذلك الحين هى أول من قدم مساعدة « حيوية » لفرنسا فى احتلالها .. للتراب الوطنى الجزائري » .

\* \* \*

## أحوال اليوم وأمال الغد

مع اضمحلال الدولة الإسلامية خلال القرون الأخيرة انفرد التبشير الصلبي بقارة أفريقيا ، ورسم سياسة دقيقة للاستحواذ عليها ..

كان الإسلام ، الدين السماوي الأول في هذه القارة ، وكان يكتسب بثبات أرضًا جديدة من الوثنية السائدة ، فلما دخل الأوروبيون قرروا لفوراً تغيير هذا الوضع ، والطريف أنهم عدوا أنفسهم مكتشفين لبقاء شتى كان العرب قد عرفوها من قبل ، فالبحيرات العظمى التي ينبع منها النيل كانت معروفة للجغرافيين العرب ..

غير أن المستعمرين الجدد لما وصلوا إليها خلعوا عليها أسماءهم فإذا نحن أمام بحيرة «فيكتوريا» وبحيرة «ألبرت» .. إلخ ، وهذه البحيرات تدرس بأسمائها الجديدة في البلاد العربية لطلاب المراحل الدنيا والعليا .. !

واقتسم الأوروبيون القارة الغفل وشرعوا في تنفيذ برامجهم الاستعمارية والتبشيرية ، ورأوا - تمشياً مع اتجاه العصر - أن يحولوا المستعمرات إلى دول حديثة فأنشأوا عشرات من الحكومات المستقلة (!) وراعوا في تكوينها تقطيع الأواصر الإسلامية ، وتشتيت أجزائها ، وجعل السلطة بأيدي خريجي المدارس التبشيرية وحدهم ، وجعل الكثرة المسلمة تذل وتقل على مر الأيام .. بل لقد وضعت خطة عامة لتفويض الإسلام في إفريقيا كلها مع نهاية القرن العشرين !!

ولكن الأمور جرت على نحو آخر ، فإن قرى كاملة ، وقبائل بأسراها أخذت تعتنق الإسلام ، وتهجر وثنيتها الأولى .. .

وكنت في مجلس يضم عدداً من رؤساء الجامعات العربية قرأوا ما نشرته جريدة «الموند» الباريسية تعليقاً على هذه الانتكasaة التبشيرية ! قالت الجريدة في غيظ : «كيف يقع هذا ؟ وكيف يلقى الإسلام هذا القبول ؟ ثم تتجه إلى الزوج الذين أسلموا موبخة لهم على إسلامهم قائلة : أنسى هؤلاء ما فعله المسلمون الأولون بآبائهم ؟ كانوا يخطفونهم ويبيعونهم عبيداً ؟ فكيف يدخلون في هذا الدين ؟ » .

ونحن لا نستغرب من الجريدة الفرنسية أن تتهمنا نحن المسلمين بما كان يفعله الأوربيون في إفريقيا خلال القرون الوسطى ، لقد ظلوا خمسماة عام يخطفون السود من غرب إفريقيا ، ويسرون على تجارة عالمية للرقيق مفعمة بالأسى ، إن الجريدة التي صدرت في أواخر يناير سنة ١٩٨٥ تذكرنا بالمثل القديم : «رمتنا بدائها وانسلت ! ترى أيدي المسلمين ما يقع ؟

إن بقاء الإسلام ونماءه في بقاع كثيرة لا يعودان إلى نشاط الأتباع ويقطفهم ... بل يرجع ذلك إلى سلامة عقائده ، ويسر تعاليمه ، وتلاقيه مع فطرة الله في الأنفس والأفاق ، ولكن غيابنا نحن المسلمين عن معرك المذاهب والاتجاهات العالمية له آثار سيئة ، إن نجحنا منها اليوم فلن ننجو في الغد ، وحسابنا عند الله عسير .

أما ملخص معلومات قليلة عن جمهورية «رواندا» التي هي واحدة من بعض وخمسين دولة أنشأها في إفريقيا الاستعمار الجديد ... عدد السكان نحو ربع المليون ! في سنة ١٩٠٠ لم يكن بها نصارى ، وحسب الإحصاء المعلن يبلغ عدد النصارى فيها الآن ٥٠٪ من تعداد السكان ، على حين يبلغ المسلمون - كما يقال - ٪ ٧ والباقي وثنيون .

وأنا شديد الريبة في هذه الإحصاءات ، لأنني لست تزويدها في أقطار كثيرة ، واستيقنت أن عدد المسلمين أكبر وعدد غيرهم أقل ، ولا يعنينى ذلك الآن ، وإنما الذي استوقفني أن ثلث المبعوثين للتعلم في الخارج ظفر بهم الاتحاد السوفيتي ، والباقي موزعون على إيطاليا وكندا وسويسرا وفرنسا وألمانيا وبليجيكا وزائير والسنغال ... إلخ .

وهذه النسب تفسّر لنا لماذا تحولت دول شتى غداة استقلالها إلى الشيوعية ، ولماذا ترتبط دول أخرى بالغرب ، وتفتح أحضانها للدعایاته وفلسفاته ، ولماذا تبقى اللغة العربية في عزلة ، ويبقى الكتاب العربي قليل القراء .. والإسلام هناك محروم من جملة وسائل الإعلام ، وبديهى أن تكون علاقة المسلمين في «رواندا» شبه معزولة عن العالم الإسلامي ، وقد استوقفني أمر آخر ذو بال ، أن المسلمين هناك يعانون من خلافات وانقسامات شديدة ! واستنتجت أن الخلاف بين الصوفية والسلفية أو بين السلفية والمذهبية ومن يدرى ؟ لعل الاشتباك مع الجهمية والأشاعرة .

قال الراوى : وقد افتتح أخيراً ناد تبشيري في ضاحية تسكنها أغلبية مسلمة

وأطلق على النادى اسم «نادى رفيقى» ! قلت فى نفسى : لعل الذين افتتحوه طامعون  
فى أن يصلحوا ذات بينما !! ما أفقرنا إلى الوعى ...

مستقبل الإسلام رهين - بعد مشيئته الله - بجهود أبنائه لا بإرادة أعدائه ... على  
جيئتهم وحدها يكون الفصل فى هذا النزاع الطويل ، وتحدد وجهة الإنسانية ...  
المسلمون ما انهزموا قط ، ولن ينهزموا أبداً إلا خلل فى صفوفهم هم ...

وقد أراد الله أن يكون العرب رءوسا بالإسلام ، قادة برسالته ، فإذا عاودهم الحنين  
إلى جاهليتهم ، وأثروا الانتماء إلى قوميتهم ، فنحن ننذرهم ، بقول الحق : ﴿إِن يَشَاءُ  
يُذْهِبُكُمْ أَيْهَا النَّاسُ وَيَأْتِيَّنَا بَآخْرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾<sup>(١)</sup> . إن الأجناس التى  
دخلت فى الإسلام نجحت العرب فى فلسطين ، وحررت بيت المقدس يوم غرق العرب  
فى خلافاتهم وأحاطت بهم مأربهم وخطاياهم ومكثوا الصليبىين الأوائل من اجتياح  
البلاد والعباد وأجرموا مذابح تتشعر منها الجلود ...

ويبدو أن العرب يقترون ذات الأخطاء فى هذه الأيام ، ويذكرون قوميتهم وينسون  
عقيدتهم وستجعلهم الأقدار أحاديث إن لم يسرعوا بالمتاب ...

وكلمة أخرى نقولها للعرب والمسلمين : ما هذه الجهالة الفاحشة بشئون الكون  
والحياة ؟ وكيف تخدمون دينكم وأنتم صرعى تخلّف علمى مذهل ؟؟

إن اللص إذا كان عارفاً بأسرار البيت ، ومرافقه ، ومداخله ، ومخارجه ،  
وغرفاته ، وسراديبه فهو أولى به من رب البيت الذى يعيش فيه دون أن يدرى شيئاً  
من ذلك كله ...

إن الله أسكنكم هذه الأرض كما أسكن غيركم فكيف يسخر غيركم قواها ،  
ويهيمن على مداها وأنتم فى أماكنكم لا تصنعون شيئاً ؟ ماذا يشغلكم ؟ التسبيح  
والتحميد ؟ الله يعلم أنكم عن طاعته مصروفون !

إن هذا الطمس عقوبة إلهية على تناول الدين قشوراً لا حقائق ، وعلى تحريف  
الكلم عن مواضعه ، لقد أسقطتم الأخلاق عن عرشها فأعیدوها إلى مكانتها ،  
وتعلّموا التمام لا النقص ، والجمال لا التشويه ! إن الإنسانية انضباط لا فوضى ،  
والإسلام حكمة ونظام لا أهواء جامحة ..

(١) سورة النساء ١٣٣ .

يقال للدابة حين لا يربطها حبل ، ولا يقفها قيد ، إنها سائبة ، أو حبلها على غاربها ، فهـى تنطلق كيف تشاء ! فماذا يقال للجـمـاعـةـ حين لا تربطها كـلـمـةـ ، ولا تضـبطـها عـقـيـدةـ ، ولا تـقـفـهاـ حدـودـ منـ أـخـلـاقـ أوـ تـقـالـيدـ ؟ إنـ الشـاكـينـ منـ هـذـاـ الـوـضـعـ سـمـوـاـ ذـلـكـ تـسـيـبـاـ ! والـسـيـبـ أوـ التـسـيـبـ كـلـمـاتـ عـرـبـيـةـ صـحـيـحةـ ، وـلـكـنـهاـ لـيـسـتـ مـعـالـمـ عـرـبـيـةـ ، وـلـاـ عـرـفـاـ مـورـوـثـاـ ، وـعـنـدـمـاـ نـزـنـهـاـ بـمـواـزـيـنـ الـدـيـنـ نـجـدـ كـتـابـنـاـ يـعـدـهـاـ مـعـالـمـ الـفـسـقـ وـالـعـصـيـانـ .

وتدبر قوله تعالى : ﴿رَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هُوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فِرْطًا﴾<sup>(١)</sup> إن الجـمـالـةـ الـأـخـيـرـةـ تـدـلـ عـلـىـ أـنـ الـأـمـرـ الـفـرـطـ ، أوـ الـوـضـعـ السـائـبـ ، أوـ الـجـمـعـ الـخـلـولـ يـجـيـءـ ثـمـرـةـ غـفـلـةـ الـقـلـبـ ، وـاتـبـاعـ الـهـوـيـ ، سـوـاءـ أـكـانـ ذـلـكـ فـىـ أـحـوـالـ النـفـسـ أـمـ فـىـ أـخـلـاقـ الـجـمـاعـةـ !

والـحـقـ أـنـ الـأـمـةـ الـإـسـلـامـيـةـ أـبـدـ الـأـمـ عنـ هـذـاـ الـانـفـراـطـ فـىـ عـقـدـهـ ، أوـ التـسـيـبـ فـىـ شـئـونـهـاـ ، أوـ الـفـوـضـىـ فـىـ عـلـاقـاتـهـاـ ، لـوـ أـنـهـاـ وـفـيـهـاـ لـدـيـنـهـاـ ، وـقـائـمـةـ عـلـىـ نـهـجـهـ ..

ويبدأ ذلك كـلـهـ باـحـتـرـامـ الـكـلـمـةـ ، إـحـاطـتـهـاـ بـنـطـاقـ مـنـ الـجـدـ وـالـصـرـاحـةـ ، وـفـىـ الـحـدـيـثـ الـشـرـيفـ «إـذـاـ حـدـثـكـ الرـجـلـ بـالـحـدـيـثـ»<sup>(٢)</sup> ثـمـ التـفـتـ فـهـىـ أـمـانـةـ ! وـفـىـ الـحـدـيـثـ أـيـضـاـ «الـجـالـسـ بـالـأـمـانـةـ»<sup>(٣)</sup> وـيـقـولـ اللـهـ سـبـحـانـهـ فـىـ وـصـفـ الـمـؤـمـنـينـ : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾<sup>(٤)</sup> .

إنـ الـجـمـعـ الـمـؤـمـنـ مـتـمـاسـكـ بـعـزـائـمـ الرـشـدـ ، مـتـعـارـفـ عـلـىـ حـدـودـ اللـهـ . وـحـقـوقـ النـاسـ ، وـرـبـماـ اـسـتـهـانـ بـعـضـ بـكـلـمـةـ لـغـوـ ، أوـ تـورـطـ فـىـ عـمـلـ رـدـئـ ، بـيـدـ أـنـ هـذـاـ العـوـجـ لـاـ يـطـوـلـ أـمـدـهـ ، أوـ تـسـعـ دـائـرـتـهـ ، لـأـنـ إـلـاسـلـامـ الصـحـيـحـ يـرـفـضـ بـشـدـةـ تـسـيـبـ الـقـطـيعـ . تـرـىـ هلـ الـمـوـظـفـ الـذـيـ يـقـولـ لـصـاحـبـ الـحـاجـةـ : تـعـالـ غـدـاـ ، فـإـذـاـ جـاءـ الـغـدـ كـرـرـ التـسـوـيفـ مـثـنـىـ وـثـلـاثـ بـأـعـذـارـ شـتـىـ ، أـتـظـنـ ذـلـكـ اـمـرـءـاـ يـعـرـفـ قـيـمـةـ الـكـلـمـةـ أـوـ قـيـمـةـ الـوقـتـ أـوـ قـيـمـةـ الـوـظـيـفـةـ الـتـىـ يـشـغـلـهـاـ ؟ أـمـ هـوـ اـمـرـءـ سـائـبـ .

عـنـدـمـاـ اـقـتـرـحـتـ بـنـتـ شـعـيبـ عـلـىـ أـبـيهـاـ أـنـ يـسـتـأـجـرـ مـوـسـىـ لـيـدـيرـ أـعـمـالـهـ قـالـتـ فـىـ تـعـلـيلـ اـقـتـرـاحـهـ : ﴿يـاـ أـبـتـ اـسـتـأـجـرـهـ إـنـ خـيـرـ مـنـ اـسـتـأـجـرـتـ الـقـوـيـ الـأـمـيـنـ﴾<sup>(٥)</sup> أـيـ أـنـهـ

(٢) ، (٣) رواه أبو داود وابن ماجه .

(١) سورة الكهف ٢٨ .

(٤) سورة القصص ٢٦ .

(٥) سورة المؤمنون ٨ .

يجمع بين القدرتين العلمية والخلقية . أما يوسف الصديق فقد اكتفى بذكر خبرته ومهارته فقال : «**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظُ عَلَيْمٌ**»<sup>(١)</sup> وكأنه ترك لباقيه الطاهر أن يشهد له بالاستقامة والشرف ...

ونحب أن نفرق بين نوعين من مراتب الإحسان والعظمة النفسية ، هناك رجل راشد يعرف الصواب ويستمسك به ، وهناك رجل يضم إلى ذلك تدريب الناس على الحق واقتيادهم به ، إنه راشد مرشد ، هناك رجل صالح يتقوى الله ويحرص على أداء حقوقه ، وهناك رجل يضم إلى ذلك غرس أعاد التقوى في المجتمع ورعايتها حتى تزهر وتثمر ، إنه صالح مصلح .

**الصنف الثاني أعظم درجة من الصنف الأول ، ولأمر ما جعل الله الإمام العادل أى الحاكم الأمين أول من يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ..**

إن الإدارة الناجحة هي سيدة الأعمال الصالحة ، لأنها تمكين للخير في الأرض ، ونقل له من عزلة الصوامع إلى ضجيج الحياة ومعترك المعيش ، إنها صلاح يتعدى صاحبه إلى غيره ، ويتحول به الحق من فكر إلى واقع ...

والحضارة الحديثة من أنجح الحضارات في فن الإدارة فهي تضع الخطط وترقب التطبيق وتسد الثغرات ، وتعتبر الأخطاء ، وتحصى الوقت ، وتحبند الموهاب ، ولا تترك شيئاً للمصادفات ، أما نحن العرب والمسلمين ، فأصحاب علل شتى في فن الإدارة ، ولا أدرى لماذا فهمنا الصلاح على أنه العبادات الخضة ؟ هذا تفكير منكر للعلوم الشامل الذي قال الله فيه : ﴿أَمْنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾<sup>(٢)</sup> و ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

إن العمل الصالح واسع الدائرة إلى حد يشمل كل شيء في الحياة تباشره باسم الله ، فالمفكر بعلمه ، والطبيب بسماعته ، والمدير أمام ملفاته ، والمهندس أمام أجهزته ، والزارع المنحني على أرضه يستثمرها ، والصانع العاكف على آلاته يحركها ، أولئك جميعاً في صلاة ما دامت قلوبهم مع الله ، وجهدهم لأمة ترقب إنتاجهم وتنجح بنجاحهم .

(٢) سورة البقرة ٢٥ .

(٣) سورة الأنعام ٤٨ .

(١) سورة يوسف ٥٥ .

## الوحدة الإسلامية طريق طويل لكنه ضرورة حياة ....

أرى في صدر حديثي أن أنصف الانتماء الإسلامي الذي أحرجته الليالي وألحت  
به هزائم شتى !

إن هذا الانتماء حقيقة شريفة القدر متدة الأثر ، موصولة بأعظم تراث في الوجود .  
فالقرآن هو الوحي كله من أزل الدنيا إلى أبداها ، وكل ما خالقه مبتوت الصلة بالسماء .  
ومحمد هو الإنسان الأولى شرف سيرة وصدق بلاغ ! وهو أعلى قمة في تاريخ الأحياء .  
والإسلام هو المنهج الذي توارث النبيون الدعوة إليه واقتiad البشر فيه ، فكيف  
يكون الانتماء إليه خفيض الصوت أو ذليل الجانب أو موضع الإهمال ؟ وكيف تتقدمه  
أو ترجع عليه دعوات وطنية أو نزعات عرقية ؟

إن الاستماع إلى هذه الدعوات والنزعات قطع أوصال المسلمين ، وجعل الأمة  
الواحدة أمّاً متناكراً ومكناً ذئاب الاستعمار العالمي من الانفراد بكل أمة والإجهاز  
عليها مادياً وروحياً .

وما نستعيد مكانتنا ونصون رسالتنا إلا إذا صححنا انتماءنا ، وأصغينا إلى قوله  
تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاقْعُدُوهُنَّ﴾ (١) .

إن اليهودي في آية قارة يرفع عقيدته بانتمائه الأثير لدينه ، ويقول دون حذر  
أو خجل : أنا يهودي ! حتى طائف السيخ في هذه الأيام رأوا أن يكون لهم انتماءهم  
الخاص بهم .

فهل الانتماء الإسلامي وحده هو الذي يقال في خفوت ؟ ويرسل في وجل ؟ لماذا  
يعامل الحق بهذه الخسفة ؟ وكيف نرضى الدينية في ديننا ؟

إن العمل للوحدة الإسلامية شرف باذخ ، ومجد شامخ ، ويجب على العرب قبل  
غيرهم من الأجناس التي تكون الأمة الإسلامية الكبرى ، أن يدركوا هذه الحقيقة وأن  
يربطوا ولاءهم بدينهم لا بجنسيتهم ، وأن يستضيئوا في نهضتهم بشرع الإسلام  
وشعائره ، لا بالفضلات التي يتلقطونها من موائد الغرب أو الشرق !

(١) سورة الأنبياء . ٩٢

وليعلموا أن أعداءهم قد بيتوا النيات على الخلاص منهم ، وأن التهام فلسطين تهديد لما وراءه ، وأن المؤسسات الدولية أعجز من أن تنصفنا لو أرادت ، فكيف وهي لا تلقى لنا بالاً ؟ لقد آن الأوان لنصحح انتماءنا ومسيرتنا .. !

على أن هذا التصحح لا يجوز أن يكون إثارة عاطفية عشوائية ، بل ينبغي أن ندرس بأنّة الأسباب التي جعلتنا في العالم الثالث أو الرابع بعد أن كنا وحدنا العالم الأول دهراً طويلاً .. إنها أسباب كثيرة ، ثقافية واجتماعية وسياسية ! وسأتناول هنا الجانب الثقافي لأن البعض يغفل عن خطورته .

ورأى أن الثقافة التي آلت إلينا في القرون الأخيرة كانت ضحلة أسنة لا في مجال المعرفة الدينية وحدها ، بل في مجال الأداء الأدبي كذلك ، وأن هذه الثقافة كانت أعجز من أن تصنع أمة تنھض برسالتها ، وتخدم كتاب ربها وسنة نبیها .

كانت ثقافتنا في العصور الأولى تصنع أجيالاً عارمة ، قادرة على الحو والإثبات ، تحترم الحقائق وتعشق الفضائل ، تضع خريطة الدنيا أمام عينيها ، وتنظر إليها كما ينظر لاعب الشطرنج في رقعته ينقل أحجارها كيف يشاء !

لقد كان أبو الطيب يعرف المجد فيقول :

ولا تحسن المجد زقا وقينة      فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وكان أبو تمام يصف أغراض الشعر في عصره فيقول :

ولولا خلال سنهما الشعر ما درى      بغاة العلا ، من أين تؤتى المكارم  
ثم أخذ الأدب شعراً ونثراً يهبط حتى أنسى وصفاً للشمعة أو نصحاً غثاً للتميذ كسول .  
وكذلك هبط العلم الديني وتقوّع رجاله في تخصصاتهم الدينية لا يدون أنوفهم وراءها .  
فعالم التجويد يعيش في عالم من الغن والمدد ، والفقير في العبادات يحيا في ميدان من الأغسال والطهارات ... وهكذا ..

وقد كتب «الكسيس كاريل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» يعيّب الغارقين في تخصصاتهم الطبية ، ويؤكد أن العلم بالإنسان لا يتم عن هذا الطريق .

ونقول نحن : إن العلم بالدين كله لا يتم عن طريق تجارة التجزئة ، وإن الصورة الكاملة للإسلام إنما تتم على النحو السلفي الأول ، وإن العقل الإسلامي المعاصر

يجب أن يرتفع إلى مستوى الشمول في القرآن الكريم حتى يستطيع إعادة بناء الأمة الواحدة التي لا تحد رقتها على سطح الأرض خطوط الطول والعرض ..

في القرآن المكى يقول الله تباركت أسماؤه : ﴿ قُلْ يَا عِبَادَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾<sup>(1)</sup> .

ويقول : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّاهُ فَاعْبُدُونِ ﴾<sup>(2)</sup> .

وعرف المسلمون بالبداوة أن أمة العقيدة لا يحصرها مكان ، وأن إخوان العقيدة لا يحدهم جنس ، وأن المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يسلمه ، وأن المسلم إذا استبيح دمه على شاطئ المحيط الهادى فى الفلبين يجب أن يتحرك له أخوه على شاطئ الأطلسى فى المغرب والسنغال ونيجيريا ، وأن المسلمين كما قال نبيهم تتكافأ دماءهم ويسعى بدمتهم أدنיהם وهم يد على من سواهم ..

لكن يبدو أن التقوّع العقلى والنفسي ضرب صفحًا عن هذه المعانى البينات ، فإذا الأمة الكبرى يغار عليها من هنا ، وها هنا ، وتنتقص أطرافها .

والاتجاه الآن ماضٍ إلى قلبها ولا يزال النیام يغطون !

إن عالمية الإسلام ليست في سعة الدائرة التي يعمل فيها فقط ، وإنما هي في طبيعة توجيهاته وصياغة آياته ، فالكتاب والسنة يخاطبان الإنسان حيث كان دون انحصار في زمان أو مكان ! إنهمما ارتباط بالفطرة ، وحوار مع العقل البشري تحت أي سماء وإلى آخر الدهر .

ومن ثم ففهم الإسلام أو تدریسه على أنه نهضة عربية أو يقظة محلية أكذوبة كبرى ! وكذلك تناوله من زاوية خاصة ، وعدم الوصول بمعانيه إلى أبعادها الأبدية العامة .. !

وهناك ظروف أو بیّنات تترك طابعها على العقل العادى ، فالفللاح في قريته أو العامل في مصنعه ، ينظر إلى الدنيا ، وإلى المسافات بين أقطارها نظرة ضيقة .

(2) سورة العنكبوت ٥٦ .

(1) سورة الزمر ١٠ .

أما سائق أو قائد الطيارة فإن نظرته إلى المسافات أرحب وجراحته على طيها أسرع ،  
لأنه يألف التنقل والانطلاق .

والثقافة الإسلامية الأولى كانت تصنع عقولاً من الطراز الطيار ، أما هذه الثقافة  
في أيامها الأخيرة فهى تصنع عقولاً تحسن الاعتكاف والانزواء ..

ونشأ عن ذلك أن الاستعمار العالمي لما بدأ زحفه في آسيا - شرقاً وجنوباً وشمالاً -  
وبدأ زحفه في إفريقيا من كل ناحية كان الإحساس بالألم يربكىان سرى فيه  
الخدر ، وتفاوت فيه الحس .

ولا يزال ناس من أهل العلم - كما يوصفون - لا يعلمون شيئاً عن دولة فطانى فى  
«تايلاند» مثلاً ، ولا يعلمون شيئاً عن جماهير كثيفة من المسلمين تعيش فى عشرات  
الدول الإفريقية ضائعة الهوية كاسفة البال قليلة الرجاء !

لماذا ؟ لأن العقلية التي تشرح الأخوة الإسلامية ، أو الولاء الإسلامي ، أو عبادة  
الله الواحد في العالم الكبير الذي تعيش فيه ليست عقلية «الطيار» التي أشرنا إليها ،  
 وإنما هي عقلية فلاح محدود الوعى !

ما كان سلفنا كذلك ، كان الأعرابي الساذج يعترض الرسول - ﷺ - وهو على  
نافته يطلب منه أن يعلمه الإسلام ويمسك بزمام الناقة حتى يسمع ، ويحدثه الرسول  
الملهم بما عنده ، فيصنع منه إنساناً جديداً عامر القلب بأمجاد الألوهية وأصوات  
الوحданية ، والرغبة الهائلة في تطويق الكون كله لمراد الله ، فلا ترى هذا الأعرابي بعد  
ذلك إلا قدّيفة تدك عروش المستبدّين في فارس ، أو الرومان ، وتراه هو وإنّوانه  
ينطلقون شرقاً صوب المحيط الهادئ وغرباً صوب الأطلسي لهم حوار بتسبیح الله  
وتحمیده ، وتلاوة الكتاب الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور ...

إننا بحاجة إلى ثقافة تصنع نفوسنا على هذا النحو ، إنها الثقافة التي صنعت أمتنا  
أولاً والتي تنقذها أخيراً !!

أعرف أن هناك من يقول : هذا صوت متغصب شاذ يرجع بالعالم إلى حقبة من  
الزمان نقه منها ! وأسارع إلى القول بأنّى لست شاذًا إذ أرسل هذه الصيحة فقد أرسلها  
من قبلى «مستر ريجان» عندما رشح نفسه رئيساً للولايات المتحدة في المرة الأولى وفي  
المرة الثانية ، والرجل نصراني متغصب لدينه ، وهو يحترم الكنيسة ويؤقر تعاليمها

ويدعو إلى جعل التعليم الديني جزءاً من مناهج الدراسة في المراحل الأولى .. وقد أنذر في ترشيحه الأول بأنه على استعداد لشن حرب صليبية لترجيع كافة المبادئ التي يعتنقها .. أما في حملته الانتخابية الثانية فهو يكرر نفسه بقوة .

نشرت الأهرام للأستاذ أحمد بهاء الدين (١٩٨٤/٩/٨) تقريراً نقتطف منه هذه العبارات «... لكن «رونالد ريجان» يخوض حملته الانتخابية الآن في أمريكا رافعاً الإنجيل ، قائلاً بالحرف الواحد - كما سمعته من التليفزيون : إن في هذا الكتاب حل مشاكل البشرية ... !! ويستتلى مстер «ريجان» معلقاً على مبدأ فصل الدين عن الدولة قائلاً : «إنه آن الأوان لإلغاء هذا الفصل وإعادة الدين إلى الدولة» .

وسواء عادت الدولة فى أوروبا وأمريكا إلى الدين رسمياً أو لم تعلن هذه العودة ،  
فهى تأخذ بها فى مظاهره إسرائيل ضد العرب ، وخذلان كل بادرة لظهور الإسلام ،  
أو وحدة شعوبه ، أو إحياء شرائعه ، وهى توحى لسماسرتها فى الشرق الإسلامي كى  
يصربوا الإسلام وحده !

أى إن الوحدة اليهودية حلال ، والوحدة النصرانية حلال ، أما الحرام فهو الوحدة الإسلامية !

هذه حصيلة من الآنباء التي تجمعت لدى خلال أيام معدودات أسوقها مجردة ليري القارئ المسلم فيها رأيه .

فى صحيفه كويتية عنوان كبير على ثلاثة أعمدة يقول : «ريجان يلجمأ إلى آيات من الإنجيل للدفاع عن النفقات الحربيه ! طالباً مساعدة الكونغرس لتغيير مجرى التاريخ». . وقبلها بأسبوع سمعت من صوت أميركا خبر ذهاب كاهن يهودي إلى البيت الأبيض ليبارك الرئيس فى فترة رياسته الجديدة ! وتجاوزت ذلك كله وأنا أقول : لا جديد أو لا عجب ! .

بيد أنى توقفت عند نبأ آخر خلاصته أن إسرائيل تريد تهجير المسلمين من جنوب لبنان ، وإحلال الموارنة مكانهم حتى تطمئن إلى استقرار الأمان على حدودها الشمالية ، فإن مواقف الكتابيين فى دعم اليهود وكره العرب واضحة ! وهزت رأسي وقت : لا جديد أو لا عجب ..

وأجأنى خبر آخر ، أن الحكومة الشيوعية فى الحبشه تحرم التأرين عليها من الغوث العالمى لمنكوبى الجفاف وتطاردهم إلى حيث يهلكون ! ولما كان جمهور الشوار من

المسلمين ، فقد أحسست الألم لما يلقاه هؤلاء البائسون من شتات وضياع ثم قلت : لا  
جديد أو لا عجب !

سمعت خبراً آخر أفرزعني وأذانى ، أن نحو مائتى مسلم فى بلغاريا قتلوا وهم  
يقاومون أوامر صدرت بتحريم الختان ، وتحريم الذبح فى عيد الأضحى ، وتغيير الأسماء  
ذات الدلالة الإسلامية إلى أسماء أخرى !

إن الجرح الجديد حرك الجراح القدية ، فصحت : أما تنتهى هذه الآلام التى  
يتعرض لها إخوان العقيدة فى كل مكان ؟ وانتظرت أن أقرأ تعقيباً ، أو تعليقاً على ما  
حدث فإذا الصمت الجبان ، أو الجهل المتبلد يسيطران على السنة وأفلاط كثيرة !

إن الانتماء الإسلامي وحده أمسى رجعية عند بعض الساسة ! ذلك على حين  
يتحرك الإعلام العالمي كله إذا أخرج يهودي فى روسيا ، ويشتند الهياج لإهدار حقوق  
الإنسان ! ترى من ألمون ؟ هل أمتنا الإسلامية نائمة ؟ أم مغمى عليها ؟  
إن خصومها يعربدون دون وجى ! فليس هناك ما يخاف .

وبعد هذه الحقائق العارية يقول السفهاء من الناس عنا : إننا متعصبون ، لأننا  
نحصن ألف مليون مسلم من الذوبان والضياع .

والفقه الذى يرشح أصحابه لخدمة الوحدة الإسلامية يحتاج إلى إضافات  
واجتهادات جديدة يستحيل أن تعجز عنها أصول الفقه عندنا .

إننا بلغنا الآن أكثر من ألف مليون نسمة ، وهذا العالم الإسلامي الرحب الموار  
تلباسه أوضاع اقتصادية وسياسية واجتماعية بالغة التعقيد ، وهو يحتاج إلى فقه  
إدارى ودستورى ودولى حسن التقدير لمعاش المسلمين ومعادهم على سواء ، ذكى  
الصلة بالعالم غير الإسلامية التى تشاركتنا الحياة على ظهر الأرض ..

وقد تحدث العلماء القدامى فى السياسة الشرعية ، والتراتيب الإدارية بيد أن حديثهم  
كان قليلاً ، ويبدو أنهم أوجزوا حتى لا يصطدموا بالسياسة ، وي تعرضوا للمحن .

ومع إيجازهم فقد وقفوا عند حاجات عصرهم ، وقد مضت قرون طويلة وهذا  
الضرب من ثقافتنا الإسلامية لا يعود وحالات المسلمين حتى القرن السابع  
الهجرى ، فهل ينشط الفقهاء المسلمون ليجعلوا التشريعات الإدارية والدستورية  
والدولية مناسبة لمطالع القرن الخامس عشر الذى احتفلنا بمقادمه من بضع سنين ؟

إن الألف مليون مسلم يتعرضون لامتحانات عالمية قاسية ، بعضهم يدور في فلك «الكومونولث» البريطاني ، وبعضهم ينوب في فلك الاتحاد السوفياتي<sup>(١)</sup> ، وبعضهم يلهث ليتحقق بالسوق الأوربية المشتركة ، وبعضهم يؤثر القومية الإفريقية ! لعل هذه القومية الإفريقية أعرق وأسمى من الجامعة الإسلامية ! وهذه دول أخرى تنقله من غرب أوروبا ... والفقه الإسلامي واقف طوعاً أو كرهاً في مكانه العتيق لا يقدم البديل المطلوبة ، وإذا كان بعض الساسة القاصرين يعترض هذا النمو الثقافي الحتم فهل ننتظر حتى تطوينا ردة العلمانية الحديثة ؟

وهناك قضية تثار أمام الوحدة الإسلامية ، تبدو للوهلة الأولى كأنها مشكلة ، وبعد التأمل الجاد تتكشف عن مهزلة أى مهزلة ، أعني قضية الأقليات التي افتعلها الاستعمار افتعالاً يشف عن مكره السبيع بالإسلام وأمته .

وهاكم غاذج لما يقع ، توجد في السودان الجنوبي قلة نصرانية من آثار التبشير الذي انفرد بالمنطقة عشرات السنين ، هذه القلة تبلغ ١٥٪ من سكان الجنوب ، ومع أن معهم مسلمين يبلغون هذه النسبة فإن المخطط الاستعماري يريد إنشاء دولة مسيحية هناك ، ترجم المسلمين المساوين لهم على الارتداد أو الفرار ، وتتفرد ببقية الوثنين ، وتعاون مع الصليبية العالمية على بلوغ أهدافها في تنصير القارة القدية ..

وقد أخبرني أحد موظفي الرى المصريين أنه عند إجراء إحصاء هناك ثبت طلبة أحد مكاتب تحفيظ القرآن الكريم على أنهم نصارى ، وأضيفت عليهم أسماء أجنبية ... ! ولقد عرى الرئيس «جعفر النميري» نفسه المؤامرة على جنوب السودان في كلمته لأعضاء المؤتمر الإسلامي الأول .. قال الرئيس النميري :

«ستسألون على وجه اليقين عن مشكلة الجنوب ، ستسمعون كذباً كثيراً وافتراء وأساطير ينسجونها حول الجنوب ، الجنوب الذي زرعه الاستعمار قنابل وقت انفجارها وحدد آثار الانفجار وحسب بدقة نتائجه . وأستأذنكم لأحدثكم عن الجنوب قبل مائة عام وأكثر ، كيف كان موقع القلب من السودان الموحد في قمة الشورة المهدية الإسلامية ، وأنقل لكم هذه الفقرة من صفحة ١٦٣ من كتابي «النهج الإسلامي لماذا؟» .

---

(١) وقد تفتت الاتحاد السوفياتي وأصبح «كومونولث» وبقيت روسيا وما زال لها أتباعها .. وتسعي جاهدة نحو الدوليات الإسلامية من جوارها .

الجنوب : عذاب التاريخ وهو يتراجع ، وما أقسى تراجع التاريخ . المهدى العظيم يقاتل البغى ويطارد الاستعمار يشعل ثورة السودان القومية العظمى . بحر الغزال تسانده ، بحر الغزال تباعيده . الدينكا والنوير تطرد لبتون قائد الحامية ، وتستقبل قائد المهدى كرم الله شيخ محمد كركساوى ليرفع راية المهدية رمز وحدة السودان فوق ربوع بحر الغزال .

سفайн المهدية تتقدم إلى مديرية خط الاستواء . قبائل المديرية تقدمها تحكم الخصار حول الحاميات . تساقط وتستسلم لينسحب دكتور أمين حاكم المديرية ويرفع عمر صالح مبعوث المهدى راية الوحدة القومية ل تستظل بها مديرية خط الاستواء . جاء الاستعمار أيها الإخوة والسودان بلد واحد وشعب واحد ، الإسلام دينه ، والوحدة شعاره ، والاتفاق ديدنه لا عدو له إلا الاستعمار ، ولا هدف له إلا القضاء عليه ، فبدأ المستعمر في تخطيط جريمه الكبرى ضد الإنسانية .

فرض على أبناء الجنوب تغيير أسمائهم إلى أسماء كنسية . يوسف أصبح جوزيف وجمعة أصبح قاما وشول ودينق وماجوك وماكيج وأوان ، أضافوا إليها أو غيروها إلى وليم وجون وبستر . طمسوا معالم الجنوب الأصلية . لم يكتفوا بمحاولة فصله من الشمال بل انتزعوه من ذاتيته الفطرية الطيبة .

وفي عام ١٩٢٢ بدأ الاستعمار في تخطيط سياسة الجنوب التي استمرت حتى ١٩٤٦ فأغلقوا الجنوب في وجه ابن الشمال الشقيق ، وسارت عملية تنصير الجنوب وإشعال الفتنة فيه سيراً حثيثاً لينفجر اللغم في سنة ١٩٥٥» .

- هذا ما حدث في السودان ، وما عرّاه الرئيس النميري نفسه !!

وفي لبنان يريد الموارنة وهم أقل من خمس السكان إقامة دولة مارونية ذات طابع مسيحي ينحصر لها سائر الطوائف وجمهورهم من المسلمين ، والمفاوضات تجري لكنى يقنعوا بنصف السلطة ولكنهم يرفضون !

وقد شاع تزوير الإحصاءات في أقطار كثيرة يبدو النصارى أضعاف عددهم من الناحية المادية ، وأضعف ذلك من الناحية الثقافية ، وبذلك يتم دفن المسلمين في استرسالهم الغافل ، ثم يقال لكل يقظة إسلامية : إن الجماهير الكثيفة من النصارى ، تأبى الإسلام وشرعيته ووحدته !!

والذين يأبون ذلك نفر لا يزيدون عن ٦٪ من تعداد السكان في أكبر البلاد العربية ، فكيف بغيرها ؟؟

إنه أمر يدعو للحيرة ، ولكنهم قالوا : إن القانون لا يحمي المغفلين ! ومن خيرى على أكلك بجوع حين يلقاءك . ومن أمثلة العرب الأقدمين ، استنوق الجمل ! وإن البغاث بأرضنا يستنسن !!

وقد لاحظنا أن المعاهدات الثقافية تعقد في هذا العصر لدعم المبادئ والأداب واللغات الأجنبية .

وتقاد القارة الإفريقية تكون مقسمة بين الدول الناطقة بالفرنسية ، والناطقة بالإنجليزية ...

فما وضع اللغة العربية في قارة أغلب سكانها مسلمون ؟

إن لغة الوحي هي الدعامة الكبرى للوحدة الإسلامية ، مع موت هذه اللغة سيموت التعليم والتفاهم والرباط الأدبي المشترك ، وستنشأ أجيال منكرة لتراثها وتقاليدها ، بل لعباداتها وشعائرها ...

ومن أجل ذلك يجب أن نقاتل دون اللغة العربية ، وألا نأذن أبداً بدخول حرجتها لتكون لغة ثانية ، ثم ثالثة ثم لغة ميتة ... يتم بعدها تكفين الكتاب والسنة ... !!

إن الناس من حولنا يتجمعون على عقائدهم ويتنادون بشعاراتها ...

وإذا سمحنا لأسباب الفرق أن تنازلنا ، فلا مستقبل لنا ، لأننا لن نكون ...

\* \* \*

